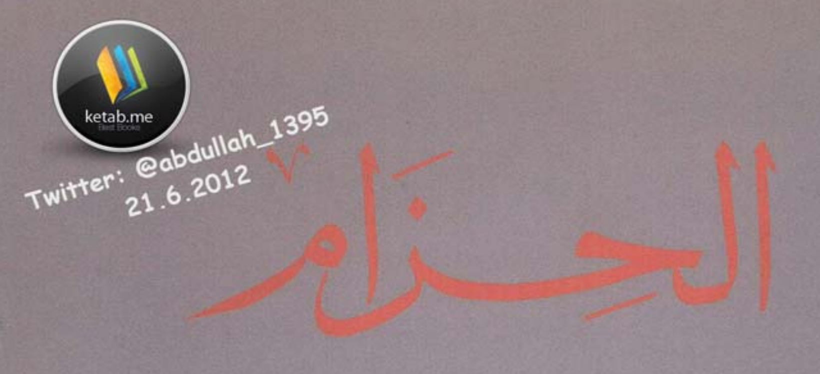


الحِزام

أحمد أبو دهمان



أحمد أبو دهمان






الحزام

Ahmed Abodehman, *La Ceinture*
@ Editions Gallimard, Paris, 2000
Cet ouvrage a été écrit et publié en français,
puis réécrit par l'auteur en arabe pour la présente édition.

الطبعة الأولى ٢٠٠١

ISBN 1 85516 567 8

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

المحتويات

لبلادي.

لكلّ القرى في العالم.

مدخل

«من لا يعرف نسبه لا يرفع صوته».

هكذا علّمتني القرية قبل كل شيء أني:

أحمد بن سعد بن محمد بن معيض بن ظافر بن سلطان بن عُوض بن محمد بن مساعد بن مطر بن شين بن خلف بن يعْلى بن حميد بن شَغْب بن بشر بن حرب بن جنب بن سعد بن قحطان بن عامر.

كان عليّ أن أقف عند قحطان كما يفعل أغلب القحطانيين الذين يعتقدون أنّهم أنبل القبائل في شبه الجزيرة، وأنّهم أصل كل ما هو عربي. إلاّ أنّ أمي وقليلاً منهم يرفعون هذا النسب إلى «عامر» باعتباره آدم القبيلة. ولهذا فضّلت أمي وآدم.

حفظت نسبي استعداداً ليوم الختان الذي نتهيأ له منذ لحظة الولادة كما لو أنّه اليوم الوحيد الذي يستحقّ الحياة.

اكتشفت فيما بعد أن الجزيرة العربية عرفت الختان قبل ظهور الإسلام بألف عام.

وكعادتها، احتفظت المناطق النائية بهذه التقاليد. حيث تمّ ختاننا كما يبدو على الطريقة التي كانت تمارس منذ ألفين وخمسمائة عام، وكنّا نسمع أن مناطق أكثر نأياً لا يُختن فيها الرجال إلا بعد الزواج وأن بعضهم كان ينتظر أن يساهم أبناؤه في الاحتفال به. مما يعني أنّ جزءاً من طفولتنا وشبابنا ينتمي إلى «ما قبل التاريخ».

ومع أنّ هذه المواقع لا تغري كثيراً المنقّبين عن الآثار، إلاّ أني أخفيتها قدر الإمكان منذ أن وصلت إلى العاصمة الفرنسية التي لا تخلو زاوية فيها من أثر تاريخي. وكنت على يقين من أن الآثار التي أحملها على جسدي تفوق في عمرها وقيمتها العلمية كثيراً من آثارهم.

في هذه المدينة التي اختلست كثيراً من آثار العالم، وحافظت عليها، كنت أشعر أحياناً أني نصب تاريخي، آخر مرة عشت فيها هذا الشعور، كان عندما زرت طبيباً مختصاً بعلاج القدمين.

لم يسبق أن زرت طبيباً من أجل قدميّ، ولم يسبق لهذا الطبيب أن رأى قدمين بهذا القِدم.

في القرية، لا نعطي اعتباراً للقدمين، بعضنا يولد ويموت دون أن يرى باطن قدميه، وعندما أخذهما الطبيب بيديه، رثيت له وخجلت كيف أرفع قدميّ في وجهه، أمضى ساعات عديدة في

اقتلاع ما نسميه «اللحم الميّت». تسلّل إلى تلك الطبقات عبر بعض الشقوق التي لم تستطع باريس إخفاءها. وفي تلافيف هذا «اللحم» اكتشفنا معاً خبايا من طفولتي الحافية من أشواك متحجرة وغيرها.

في باريس احتميت بقريتي، أحملها كنار لا تنطفئ، ألقي السلام بصوت مرتفع كما كنّا نفعل، وعندما اكتشفت أنهم لا يسمعون ألقيت السلام على السلام بصوت خفيض.

كتبت «الحزام» لألقي السلام بالصوت الذي يمكن أن يسمعوه، إذ عرفت بعد سنوات عديدة أن الشعوب القارئة لا تسمع إلا الصوت المكتوب، سمعوا سلامي وردوا التحية بأحسن منها. رأيت الحزام في الواجهات، في البيوت، علّقه بعضهم على جسده كما نفعل في القرية، اتسعت قريتي واستعدنا السلام.

تراحيب

«من يحفظ نسبه يرفع صوته»

إذا كان النسب احتفاءً بالذات والأهل، فإن أوّل ما يجب أن نتقنه بعد ذلك هو عبارات الترحيب بالضيف والاحتفاء به.

أذكر أنه ما إن يجلس الضيف ويستعيد أنفاسه حتى تنهال عليه التراحيب من كل فرد في القرية. وعلى الضيف أن ينهض ويعانق كل فرد على حدة. وهكذا إلى أن يصرخ: «النظر سلام».

أثناء الأكل كنّا نزعزعهم ونقاطعهم بتراحيبنا، حتى أن بعض الغرباء كان يهرب وبعضهم يبدي امتعاضاً ثم يتوسل أن نكفّ ولا نكفّ.

والآن، كيف أرحّب بالقراء العرب؟

اعتدنا ألاّ نرحب بأهل البيت، لكني سأختصكم بصوت

حزام: «مرحباً تراحيب المطر» يقولها مرة واحدة أياً كان الضيف، ثم يكفّ.

حزام الذي لن تروه. حزام الذي لن يقرأ الحزام.

هل كان يكفي غيابه وغياب معظم المعنيين بهذا النص لكيما أكتبه بلغة غير لغتهم؟

لا. ولكن لأن حزام أورثني ذاكرته ـ ذاكرة القرية، لذا كان عليّ أن أعثر على ذاكرة تحمله وتحملني.

اخترتها ذاكرة امرأة، خلافاً لوصايا حزام وتعاليمه، وحين علم سألني إن كانت ذاكرة أمّي.

قلت: روحها ابنتي وزوجتي. صافحني وبارك هذه الذاكرة.

ما إن صدر الحزام باللغة الفرنسية حتى اكتشفت أن لي، أن لنا أهلاً في كل مكان، وأن آخرين لا أعرفهم سينقلونه إلى لغاتهم، لكن أكثر التراحيب ألفة وحميميّة ما قالته قارئة من المغرب العربي «هذه ذاكرتنا رُدّت إلينا».

زوجـة زوجتـه

«يا ربّ سِتْرك في الدنيا والآخرة»

هكذا كانت القرية تستقبل نهارها ومساءها، وبعضهم كان يكشف دعاءه ويقول: «اللّهم استر أسراري، وأهلي، والمسلمين إلى يوم الدين»، ما عدا حزام، سِرّ القرية ولُغزها الكبير، كان يدعو بعينيه، ونحن نغُضّ الطرف، لأنّ فمه مملوءٌ عادة بالتّمر والزبيب.

ذات يوم، رآني أدعو كالآخرين، فالتقط حَفْنةً من الرمل وقذف بها في وجهي. بقيتُ واقفاً كحجر، لأنّنا نعرف أنّ حزام كان دائماً على حق.

ـ لستَ كالآخرين، قال لي حزام. إنّهم يعيشون يومهم فقط. والقرية ليست إلاّ محطّة عبور بالنسبة لهم. بينما يشكّل هذا الدعاء عقداً بيننا وبين الحياة. يُلزمنا بأن نترك أَثَراً أبديًّا في هذه الأرض، حتى لو اقتصر ذلك على تقبيل شجرة.

هكذا بنى أجدادنا القرية: كلُّ حجر، كلُّ بئر، كلُّ قصيدة، كلُّ وَرَقة وكلُّ خطوة تحمل أنفاسهم وعشقهم، آمالهم وشقاءهم، انكساراتهم وانتصاراتهم، أولئك الذين كانوا كلّ صباح يشيدون قريتهم وكأنْ ليس أمامهم إلاّ نهار واحد لتخليدها.

لكن - قال حزام بمرارة - لقد ولّى ذلك الزمان البهيّ، ولم يعد من أحد سواي يحمل روح القرية ويقينها، لكنّي بدوري سأموت، وليس بعدي سواك يا روحي ويقيني.

لم يكن أمامي مفرّ، إذ وَضَعني حزام تحت اختباراته وتحدياته في اللحظة ذاتها، أمرني بأن ألمس السماء، بأن أثير عاصفة بعينيّ وأتحول إلى حجر. وسألني عمّا رأيتُ وأحسستُ وتعلّمتُ لحظة ولادتي، وهل عرفتُ آنذاك ما إذا كنتُ بنتاً أم صبيًا.

لامستُ السماء، ثارت بالفعل عاصفةٌ في رأسي، انقلبت إلى صخر، وللمرّة الأولى في حياتي تمنّيت لو أنّي سحابة.

أمامَ حيرتي، طلب منّي حزام أن أُريَه سِكّيني.

- ستراها في اللحظة المناسبة.

- ليس هناك أفضل من هذه اللحظة، وسأكشف لك ما إذا كنت صبيًا أو بنتاً.

تابع وهو يتفحّص سكّيني:

ـ الرجل سكّين، أليس كذلك؟ كُلّه سكّين: نظراته، أفعاله، أقواله، وحتى نومه يجب أن يكون حاداً كالسكّين. سكّين الرجل هي قلبه وعقله، حياته وموته. في حين لا يمكن أن نلوم المرأة على شيء. جرّب حزام أن يحلق ساقه الكثيفة، لكنّ سكّيني لم تقطع شعيرة واحدة، ألقاها بحدّة على صخرة مجاورة. انكسرت، شعرت بإهانة لا مثيل لها، وبالرغم من خيبته، جاء حزام يؤاسيني:

ـ خلق الله الرجل على هيئة سكّين، قادراً على قطع أيّ شيء، وفي أيّ وقت، السكّين هي التي تعطي الرجل معناه، وليست اللحية أو العضو الجنسيّ كما يروّج هؤلاء المارّة.

ـ سأكون السكّين التي تملأ عينيك يا حزام.

كان حزام يعرفني جيداً؛ يعرف أنّي قادر على اختراق دواخل الناس وضمائرهم بمجرّد النظر إليهم، كنت أرى وأكتشف كلّ شيء، وفي الوقت ذاته لم أكن أحتفظ بسرّ، لا من أسراري ولا من أسرار الآخرين. يقيناً بأنّه لا يمكن أحداً أن يخفي سرّاً مدى الحياة. ثمّ اكتشفت أنّ أهلي وأصدقائي، وحتّى أولئك الذين ألتقي بهم لأوّل مرّة، يبوحون لي بأدقّ أسرارهم وأكثرها حميميّة.

هل لأنّي لم أكن سرّاً بالنسبة لهم؟ ربّما. حتّى حزام الذي كان يُسمّيني «الفضيحة»، أسرّ إليّ بأنّه ضاعف كميّة التمر والزبيب التي يأكلها منذ أن بدأت أجيد الكلام.

ومع أنّي لا أخفي سرًّا، وقد أخترع بعض الأسرار، غير أنّي احتفظت بسرٍّ واحد لم يكن بإمكاني أن أعيش بدونه، ولا يمكن أن أكشفه إلاّ أمام صورة أبي.

في حلم يقظة، في صباح لن أنساه، رأيتُ أهل القرية مجتمعين أمام بابنا الكبير، يقرأون أسرارهم التي خصّني بها كلّ منهم، وقد دوّنتها بدقّة مدهشة وعلّقتها على الباب. رأوا حقيقتهم معاً، وأخذوا يقبّلون بعضهم بعضاً مع قليل من البكاء.

مساءَ ذلك اليوم، دعانا شيخ القرية إلى منزله، اجتمعنا لأوّل مرّة حول وليمة، الرجال والنساء والأطفال، رقص الشيخ وابتسم حتّى رأينا أسنانه التي كان يحرص على إخفائها، تصرّف بحرّية مثيرة كما لو أنّه لم يعد شيخاً. وفجأة أعلن استقالته وهو يقول: إنّ قرية بلا أسرار ليست في حاجة إلى شيخ.

في الغد، كان القرويّون يتبادلون ابتسامات لم نعرف لها مثيلاً. تحوّلت الحياة في القرية إلى قصيدة، والناس لا يتكلّمون إلاّ شعراً، ويُغنّون بلا انقطاع، حتى البيوت، أخذت في حلمي هذا شكل القصائد المضاءة إلى الفجر. لم أعد شاعر القرية الوحيد، ولم يبق للقرية سرٌّ واحد.

كنّا أربعة في البيت: أُمّي التي أحبّ، وأبي الذي يُحبُّنا، وأختي/ذاكرتي وأنا الشاعر كما كانوا يتوهّمون.

علّمتني أمّي الشعر، وأبي علّم أُختي العزف. أُسرة تشبه الحلم. لم تكن تستهويني المدن، وأبي يقول إنّها أقيمت لأهل التجارة والسياسة، وإنه من أجل اختراق مدينة، عليك أن تعرف محتويات حقائب النساء اللواتي يُقمن فيها. وكان يقول أيضاً: «لكي تعرف امرأة بالفعل، عليك أن تراها بدلاً من أن تنظر إليها». والمرأة الوحيدة التي رأيت هي أمّي.

حين كذبت عليها للمرَّة الأولى، قالت لي بأنّ لها عيوناً وآذاناً وأياديَ في كلّ اتّجاه، وأنّها تُقيم في داخلي. صدّقتُها ولم أكذب عليها ثانيةً. وذات يوم كدت أنفجر غيظاً منها. أدَرْتُ لها ظهري، شتمتها في داخلي. أوقفتني وقالت: «لماذا شتمت أبي؟». وكنت بالفعل قد شتمتُه. يا إلهي كيف عرفت؟! كانت تعرف ما أخفيه أكثر مما أعرف. وكان أبي يؤاسيني ويقول: «وحدهنّ الأمّهات يفتحن الأبواب».

كنتُ أغذّي روحي برائحة أمّي، بنظراتها، بجمالها. كلُّ أهل القرية يعرفون رائحتها وخبز يديها.

في البيت، كانت النظافة بالنسبة لأمّي جوهر الحياة، لكنّها لم تُفلح ـ بالرغم من هذا ـ مع أبي الذي كنّا نرى أثَراً لكلّ وجبةٍ على ملابسه، بحيث تتحوّل كلّ وجبة إلى حفلة بالنسبة لأختي ولي. وكان أبي متواطئاً معنا في كلّ شيء، بينما كانت أمّي أمًّا لنا نحن الثلاثة.

ذات يوم، سمعتُ امرأة من القرية تشتمُ أبي وتقول له: «يا مَرَة مَرَته» (يا زوجة زوجته). إنّها شتيمة عنيفة وجارحة، وقد سألت أبي ما إذا كان له بالفعل عضو جنسيّ كسائر الرجال، أجابني بالسلب، هو الذي لم يكذب عليّ أبداً، أجابني بدون أن يلتفت نحوي. وعشتُ الأيّام التالية في حيرة من أمري: هل لي أبٌ أو أُمّان؟ آنذاك، تذكّرت الحكاية التي روتها أمّي: «وصل رجل غريب إلى قريتها وكان للتوّ فقدَ زوجته، وبين ذراعيه طفلة في سنّ الرضاع، عرضت عليه القرية مأوى وطعاماً، وأبدت النساء استعدادهن لإرضاع الطفلة واحتضانها. رفض هذه العروض الكريمة. كان قد أقسم لزوجته لحظة وفاتها ألاّ يرعى هذه الطفلة سواه، وألاّ يقيم في بيت بعدها لأنّها كانت وستظلُّ الأمَّ والبيتَ.

عاش الرجل في المسجد أغلب الوقت، وظلّ يحمل ابنته ويضمُّها إلى صدره ليلاً ونهاراً، وبكاؤها يشقّ القلوب والسماء، ثم خفّت حِدّة البكاء، واعتقد الناس أنّها ربّما ماتت، لكنّهم لاحظوا أنّها بدأت تنمو وتخضرُّ مثل الرضّع الآخرين. ذلك أنّ أباها استطاع إرضاعها بثدييه، ويومها آمن أهل القرية أنّ في مقدور أيّ أب أن يصبح أُمّاً.

المرأة التي شتمت أبي لم تكن تتوقّف عن ترداد هذه العبارة «الأمّ حقيقة والأبُ شكّ». وكلّ مساء يعود أبي مُتعباً من المزارع، يطلب أن نُدلّك قدميه ورجليه بالزبدة، وكنت أتفادى اكتشاف الحقيقة، وفي يوم جُمعة، جمعنا الشيخ تحت شجرة عملاقة وسأل

عمّا إذا كان أحد أضاع عضوه الجنسيّ. تحسَّس كلّ منهم ما بين فخذيه ثمّ تفرّقوا.

أخذني أبي بيدي وتبعنا شيخ القرية الذي دعانا إلى الغداء في بيته. تحدثنا عن كلّ شيء، وعندما نوينا المغادرة، أخرج من جيبه مفتاحاً كبيراً أعرفه تماماً، وأعطاه لأبي الذي وضعه على الفور في «سِبتته»، والسِبتة حزام داخلي من الجلد المفتول يضعه الرجال على أجسادهم، ويعلّقون فيها مفاتيحهم بحيث تتدلّى هي الأخرى بين أفخاذهم، وهي مفاتيح غالباً ما تكون من الحديد، يخفونها في هذا المكان الأمين. وهي خاصة بمخازنهم التي يحتفظون فيها بكميّات قليلة من القهوة والهال والطحين والسمن والعسل، حتى إذا جاء ضيفٌ بغتة ولم يبق لدى المرأة شيء، انسلّ الرجل إلى هذا المخزون يحمي به شرفه وسُمعته. والرجل الذي يعطي هذا المفتاح لزوجته يفقد ذَكَره ويصبح «زوجة زوجته».

«لِكلّ مطرٍ نبات»، وفي الربيع، من الأفضل للإنسان أن يكون شجرة. كان أبي يقولها وهو متجرّد من أغلب ملابسه تحت أمطار هذا الفصل. وكان يحثّني على هذه الفضيلة. وفي يوم كنّا نسقي إحدى المزارع، أوقف كلّ شيء، ثم أذّن للصلاة، وكان صوته عذباً، وخصوصاً عندما يتّجه إلى الله. رأيت كلّ شيء يُصغي إليه: النباتات، الأشجار والجبال، حاولت اللحاق به كالعادة لأداء الصلاة، لكنّه أبدى رغبة صادقة في أن يصلّي وحده، وحسبته عقاباً لي، استتر بجدارٍ وصلّى، رأيته نصف عارٍ

لأنّ الجزء الأسفل من ثوبه انهار بفعل السنين، وتآكل تحت حزام الجلد الذي يشدّه بقوّة حول خاصرته. كانت المرّة الأولى الّتي أرى فيها نصف أبي الأسفل، تيقّنت من أنّه رجُلٌ وصلّيت بجانبه كما لم أصلِّ أبداً من قبل.

من عادة رجال القرية بعد يوم شاقّ، أن يتجمعوا في ساحة قريبة من المسجد قبل أذان المغرب، يتناقلون الأخبار وخصوصاً القضايا المتراكمة لدى المحكمة التي افتُتِحت مؤخّراً في المنطقة. وفي أحد اللقاءات، اخترقت امرأة هذا التجمّع لأوّل مرة في حياة القرية. إذ من عادة النساء، حتّى لا يكسرن هذه الهالة، أن يعبرن على الهامش بخَفَر. سَمِعْتُ لحظتها صمت الرِّجال، أعقبه ما يشبه الهروب إلى المسجد، وانتظرتُ الخروج من الصلاة كي أعرف من أبي تفسيراً لما ارتكبته هذه المرأة، لكنّه التزم الصمت. وما إن عدنا إلى المنزل حتى صرخت أُمّي على غير عادتها: «والآن، هل ستكفّون عن أكل النساء، وهل كان على هذه الشريفة أن تريكم دم أحشائها؟».

لم يعلّق أبي، وظلّت عيناه على الموقد، ولم أفهم شيئاً على الإطلاق.

دعتني أختي إلى السطح لتروي لي ما حدث: «هذه المرأة فقدت زوجها منذ سنين، وهناك إشاعة بأنها حامل، ولكي تضع حداً لهذه التُرّهات، اختارت اللحظة التي يجتمع فيها كلّ هؤلاء الوحوش لتخترقهم ـ كما رأيتَ ـ مُلتفَةً بحزام من قماش عريض

مبلّل بالدم، ليروا أنّه دم العادة، وأنّها ليست زانية كما توهّموا».

عدت وأختي إلى المجلس، كانت أمّي تلخِّصُ مجمل ما قالته لأبي وللرجال من خلاله، «ها هيَ الآن رجلٌ مِثلُ أشرفكم، وعليكم قبول هذه الحقيقة»، إذ كان على المرأة التي تفقد زوجها في القرية أن تصبح «رجلاً» لمواجهة «الوحوش» وأطماعهم، ولكي تحمي أطفالها وإرث زوجها.

وقد عرفت القرية كثيراً من هؤلاء الرجال!

الوليّ

كان عيد الفطر يقترب، وقد أعدّت القرية عشرة من أبنائها للخِتان، كلهم في سنّ الخامسة عشرة تقريباً.

والختان هو الاختبار الأقسى للشجاعة والصبر. إنّه اختبار لإرادة الآباء والأجداد وشجاعتهم المتوارثة، وهو في الدرجة الأولى اختبار حاسمٌ لصلابة الخال وأصالته، لأن حكمة في القرية تقول: «الخال في أقصى الرحم»، هناك حيث يساهم في صياغة الجنين منذ اللحظات الأولى.

هذا ما قاله لي خالي الذي كان يُحبّني مثل روحه، وكانت أمّي توحي لي دائماً بأنّه أبي الثاني.

إنّ ختان صبي في القرية هو قضيّة القبيلة كلّها، فكلُّ الأولاد إخوة، وكلّ الأُمّهات أُمّهاتنا، وعندما كنت أُحدّث أُمّي.. مثلاً عن جارتنا، فإني أسمّيها «أُمّي شريفة»، بينما أكتفي بعبارة

«أمّي» حين يكون الحديث عن أمّي الّتي أنجبتني. وهكذا بالنسبة للآباء إلى يومنا هذا.

كانت إحدى الأُمّهات تعلن عن رغبتها في أن أظلّ صغيراً طوال حياتها لكي تستمرّ في تقبيلي على شفتيّ، تقولها ربّما مازحة، لكنّني لسوء الحظّ كنت أقترب من سنّ الختان.

في يوم العيد، احتفلت القرية بختان أبنائها، إخواننا الذين سبقونا في الولادة. جاء كلٌّ منهم يحمل «قافاً» في مديح أهله وأخواله، والقاف قصيدة طويلة، يُردّدها الختين فتنسيه جراحه.

وقفوا كالرماح، كلٌّ منهم يرفع يديه عالياً، عارياً إلاّ من خنجرين يلمعان بين قبضتيه تحت أشعّة الشمس، يضرب أحدهما بالآخر طوال الحفل أمام أهله وأخواله.

يتقدّم الفتى الأوّل بشعْرٍ مدهون بالسّمن، ورأس معصوبة بالورود والرياحين وأزهار الجبال. يأخذ في إنشاد قصيدته بصوت يسمعه من لا يسمع. وفي يديه العاليتين خنجران يعانقان وهج الشمس التي تتقاطع أشعّتها مع نظراته ومفردات قصيدته.

كان لدينا في القرية واحد من أشهر الختّانين في المنطقة، انسلّ من بين الصفوف، كأنه الريح «تحمله ويحملها»، والفتى يلقي قصيدته وعيناه على خنجريه وعلى عين الشمس، إذ لم يكن مباحاً له أن ينظر إلى أحد، أو أن يأبَهَ بالقادم الذي يخترق الصفوف حتى لو كان ينوي قتلَه، تنطلق لحظتها زغاريد النساء من كل مكان،

تتوحّد هذه الزغاريد بقصيدة الفتى ونسبه وأشعّة الشمس.

يبدأ الخاتن بإزالة الجلد المحيط بالذّكَر، بسكّين لا تلتصق بها قطرة دم، وكأنّها صُنعت من ضوء، وإمعاناً في الاختبار والنظافة معاً، فإنّ العملية تطال ما حول الذكر من الفخذين وأسفل البطن، وكأنْ لا أحد يرى الدم الذي يغطّي الجسد والأرض، والفتى كالرمح؛ سادراً في قصيدته وخنجريه وزغاريد النساء، وهو أوّل من يعرف أنّ أيّ اهتزاز أو ارتباك في كلمة واحدة، أو نظرة واحدة، يعني موته الاجتماعيّ، وأنّ أيّ بنت أصيلة لن تقبله عشيقاً أو زوجاً أبداً.

يبقى الدم المنثور شاهداً على هذه البهجة أيّاماً عديدة، حيث تقودنا آثاره من ساحة الاحتفال إلى بيت كلّ ختين، وخلالها تعالج القرية جراحها المشرّفة ببعض مستخلصات الصخور وأوراق التين، وكجزء من العلاج تقيم القرية مآدب فطور صباحي فاخرة لأولادها في كل بيت، مثل تلك التي تعدُّ لكبار الضيوف من خبز القمح والسّمن والعسل الجبليّ. قبل هذه الوجبة يجتمع المختونون في إحدى الساحات المشمسة، معرّضين أجسادهم الجريحة للشمس، ومن طبيعتنا احترام هذه اللحظة من التعرّي.

في صباح بهيّ ما زال متفرداً في ذاكرتي، وبينما أمّي تعدّ وجبة فاخرة لإخواني، أرسلتني لاستقبالهم، ولصدّ أيّ فتاة عن التحرُّش بهم واستثارة جراحهم الظاهرة والباطنة، وكنت حريصاً أشدّ الحرص على أداء هذه المهمّة المثيرة.

غمرتني رائحة إحدى قريباتي، يا إلهي! ماذا لو غمرتهم هذه الرائحة التي توقف الرياح وتُلهب حتى الصخور.

من هذه الرائحة التي تأتي من كل مكان، انبثقت الجميلة، وقَفَتْ على مقربة منهم وكأنّها تتحدّى الشمس، قالت لأكثرهم وسامة ما لا يُقال، هدّدتُها فكشَفَتْ عن بعض مفاتنها، وعَدَتْهُ بتُدراعٍ نادر بعد شفائه، والتُدراع في تقاليد القرية قديماً، هو اختلاءَ الفتى بالفتاة بدون فضّ البكارة.

أشعَلتنا جميعاً بهذه المشاهد، ظلّت تعِدُ الفتى بما هو أبعد، رفعت قليلاً ملابسها وانهالت الدماء والدموع، ارتفع الصراخ، اخترق كلّ المنازل، كان هذا يوم سبت والرجال كلّهم في السوق البعيد عن القرية، حدث ما يشبه المذبحة؛ الدماء تسيل من مناطق لم يعتدِ النساء الاقتراب منها، تقدّمت النساء المسنّات، عالجن الجراح وانخفض الصراخ، واستمرّت هذه القريبة في معاركها الفاتنة طوال حياتها، لكنّي مثل القرية لن أكشف عن بعض الصمت.

المرأة التي كانت تحلم في أن أظل صغيراً لكي تقبّلني على فمي مدى حياتها، كانت من أوائل الناس الذين امتلكوا مذياعاً في جهاتنا، وغالباً ما نذهب إلى بيتها في المساءات للاستماع إلى بعض برامج البادية وأناشيدها، ولم يكن أبي يصحبنا دائماً تفادياً للقيل والقال.

من عادتها أن تدعوَ بنتاً أو بنتين من القرية للنوم معها ومع أطفالها، درءاً لتوهّمات الآخرين، هاتان البنتان من أجمل بنات القرية وأكثرهنّ فتنة، كانتا تحتضنانني كل مساء أمام تلك السيّدة وأمام أختي التي كانت تؤكّد لي بأني جدير بهذه المحبَّة، وفي هذه السنّ، كانت فتيات قرية مجاورة تدعونني «الوليَّ».

في ما سبق، تحدَّثتُ عن أخت واحدة، بينما كان لي سِتُّ أخوات؛ ثلاثٌ ورثهنّ أبي عن أخيه وزوجة أخيه الّتي كانت شقيقة لزوجة أبي الأولى.

أمّا أُمّي فقد كانت زوجة لرجل غنيّ يسكن في تلك القرية التي تدعوني فتياتها «الوليّ»، وقد أنجبت من ذلك الرجل عشرة أطفال، مات منهم ستة وظلّ لي أختان وأَخوان، أي أنّ لي أختين من أُمّي وثلاثاً من إبنة أخيها، لأنّ زوجة عمّي كانت ابنة خالي.

أثناء زواجها القديم، أخذت أُمّي قليلاً من البُنّ وأعطته لعائلة فقيرة لم تذقِ القهوة منذ زمن، عرف زوجها الغنيُّ، طلّقها على الفور، وحكم القاضي بأن تحتفظ أمّي بأختي الصغيرة، عادت أمّي إلى بيت أخيها، أو على الأصح أَحَد إخوتها. لأنها هي أيضاً كان لها إخوة من أبيها وإخوة من أمّها. أما أبي فكان للتوّ فَقَدَ أخاه وزوجة أخيه، ومعهما فَقد زوجته الأولى التي ماتت أثناء إنجابها ولداً مات في نفس الوقت. لكنه ورث بنات عمّي الثلاث اللواتي أصبحن أخواتي.

في شبابه، كان أبي سيّدَ الليل، يقطع مسافات شاسعة على قدميه، من أجل ليلة راقصة. وبصفيحة فارغة كان يحيل الناس إلى عاصفة من الجنون الراقص، وكانوا يدعونه «رعْدان» نسبة إلى الرّعْد والغيوم. ما زال شعره الأجعد الطويل حديث القُرى، ولكي يظلّ شَعْره منسّقاً على الجانبين فقد كوى رأسه كيًا شكّل فارقاً يخترق شعره. استمرّ هذا الطريق العجيب حيّاً إلى أن غادر العالم.

بعد طلاقها، عادت أمّي إلى بيت أخيها الذي كان أباً لزوجة أبي الأولى وجدّاً لأخواتي الثلاث «بنات عمّي». أصبح بيته ملجأ لأبي ولأمّي معاً. كان وجْهُ خالي يشبه الأرض الخيّرة والسماوات المطرة، وبيته مفتوح للجميع لأنه كان أيضاً شيخاً في قريته، شيخاً حقيقياً قلّ أن عرفت قُرانا مثله، أذكر كم كان أبي فخوراً وسعيداً أن يكون لي خال بهذه الندرة.

بالنسبة لخالي، كانت أمّي هي المرأة الوحيدة القادرة على ترويض سيّد الليل والجنون وتحويله إلى رجل وأب. إلاّ أنّ أبي كان حذراً ومتردّداً. لمعرفته بأنّ النساء المطلّقات عادةً ما يتزوجن ثانية زواجاً موقّتاً، يبذلن ما في وسعهنّ لتحويل هذا الزواج إلى جحيم، مما يدفع الزوج الثاني إلى الطلاق، وهكذا تجد المرأة المطلّقة للمرّة الثانية ما يبيح لها العودة إلى زوجها القديم وأطفالها، وهو تحايُلٌ معترف به ومُقنّن شرعاً كما يقولون، ثمّ إن أبي كان فقيراً ومنذوراً للرقص والسّفَر، بينما كان الزوج القديم غنيّاً ولا يعنيه

إلاّ ثروته والوجاهة التي كانت مصدر شهرته في كلّ القرى. بالرغم من هذه الفوارق فإنّ خالي أتمّ عقد الزواج بين من أصبحا أمّي وأبي، هذا الزواج الذي سأظلّ أحتفل به مدى الحياة لأنّي بدأت احتفالي منذ تلك اللحظة التي أصبح فيها خالي أخاً لزوجة أبي بعد أن كان أباً لزوجته الأولى.

وصلت أمّي إلى بيتنا بصحبة أختي الصغيرة من زوجها القديم. ولم يكن في بيتنا شيء إلاّ أبي وأخواتي الثلاث اللواتي أصبحت أمّي أمّاً لهنّ وجدّة معاً. أما زوج أمّي القديم فقد تزوّج بامرأة لم تنجب منه إلاّ فتاة واحدة ثم طلّقها، وأعقبها بزوجتين في فترة قصيرة انتقاماً من أمّي التي كان يعتبرها لؤلؤة النساء كما كشف لي في وقت لاحق.

استنفرت أمّي كلّ طاقاتها، ومنحت من نفسها كلّ ما تستطيع لإنجاح زواجها مع أبي، وأعرف أنّي كنتُ أكبر إنجازاتها ومفاخرها، حتى أنّ زوجها القديم كان يحبّني ويفتخر بي، وقد أسرّ إليّ بأنّ أمّي احتفظت بي لأبي لكي تريه ماذا يمكن أن تقدّم امرأة لرجل يُحبّها. أمّا ابنته من زوجته الثانية فقد كبرت وأصبحت عندنا من أجمل الفتيات. وكانت بالفعل أشجعهنّ.

لقد أحبّت رجلاً متزوّجاً تتمنّاه كل النساء وأحبّها بدوره، استطاعت هذه الجميلة أن تفعل ما لم تفعله فتاة قبلها في ديارنا. أقنعَت أباها الغنيّ العتيّ بالزواج من هذا الرجل، حدّثنا إخواني وأخواتي من أبيها أنّها قالت له: «قبِلْتَ أم لم تقبلْ. لن أتزوج

بغيره، وإن رفضْتَ فسأفعلها يوماً ما، سأترك الأغنام لوحدها في الجبال وسأتّجه إلى بيته أمام العالم أجمع».

وهي اليوم من أسعد النساء، أنجبت منه عشرة أطفال في بيت تتقاسمه مع زوجته الأولى التي أنجبت هي الأخرى عشرة.

أعانَ خالي أمّي وأبي بالأثاث والغذاء، ولم يعد ينقصهما إلاّ الحطب الضروريّ للتدفئة والطّهو. لم تكن أمّي غريبةً في قريتنا، لأنّ رجالاً كثيرين من عندنا تزوّجوا بنساء من قريتها، منهنّ إحدى أَخَواتها، أمّ تلك الفتاة التي تلهب رغبات الرجال والّتي سبق أن روينا بعضاً من حكاياتها.

نحن، على حدّ علمي، القبيلة الوحيدة التي تهبط من السماء. نعيش في منطقة جبلية والسماء عندنا جزء من الجبال. في قريتي لا يسقط المطر كعادته، بل يصعد. ومن هذه الجبال كان على أمّي أن تجلب الحطب الذي يكفي للطهو والتدفئة.

ذهبَتْ للمرّة الأولى في اليوم الثاني من زواجها مع عدد من نساء القرية، كان ذلك منتصف الليل، لأنّ عليهنّ أن يعدن قبل أذان الفجر لمشاركة الرجال أعمال الحقول، وللاهتمام بالأطفال والحيوانات والبيوت. وأثناء عودتهن محمّلات بكميّات كبيرة من الحطب. دقّت ساعة الأكل. أخرجت كلٌّ منهنّ قطعة خبز بدون أن يتوقّفن لحظة عن صعود الجبال المؤدية إلى القرية. إلاّ أمّي التي كانت بلا خبز. وفي الظلمة المطلقة تناولت أمّي رأس الحبل الذي

تشدّ به حطبها وأخذت تمضغه لتخفي عن رفيقاتها هذه اللحظة المريرة.

عرضْنَ عليها بعض الخبز لكنّها رفضت بحجّة أنّ لديها ما يكفيها، كانت في رأس القافلة، ولهذا لم يكن بإمكان الأخريات أن يعرفن ماذا كانت تأكل. ومن تقاليدهنّ أن يعدن إلى القرية في نشيد جماعي، يقطعن به الطريق ويوقظن به القرية قبل أذان الفجر. وفي ذلك الصباح، علّمتهنّ أمّي نشيداً عذباً، تلك التي كانت تمضغ الحبل قبل قليل، أصبحت تدعى شاعرة الجبال.

نجح خالي تماماً في الجمع بين أمّي وأبي. وصنعت أمّي من أبي رجلاً جديداً، قادراً على مواجهة كل المفاجآت والظروف وتحمُّلها، عرضَت عليه أن تقوم مقامهُ في القرية، وأن يخصّص معظم وقته للمتاجرة والسفر. هذه المهنة التي كان يحثُّ عليها إمام القرية في خطبة أيّام الجمعة، حيث يؤكد دائماً أنّ التجارة تسعة أعشار الرزق. إلاّ أن المتاجرة في حاجة إلى مال، وأبي الذي عاش المجاعة المطلقة وخرج منها بسلام ليس على استعداد لدخولها ثانية. أمام إلحاح أمّي ذهب أبي إلى رجل في قرية مجاورة، لم يكن هذا الرجل يطعم أسرته إلاّ مرةً واحدة في اليوم، لكنّه كان غنيّاً ويقرض الرجال الثقات، ما زلت أذكر وجه ابنه وزوجته إلى اليوم. كانا يحملان جفاف الصخور وشقاءها. وهذا الغنيّ الذي كنا ندعوه «جلمود» وافق على أن يقرض أبي مبلغاً من المال شريطة اقتسام الأرباح مناصفة.

بدأت مغامرات أبي المطلقة في الجبال الوعرة حيث قُطّاع الطرق، والحيوانات المتوحشة، والأجواء المتقلّبة المرعبة مما يضعه في خطر دائم أثناء رحلاته التي يمتدّ بعضها أكثر من أسبوعين بدون أدنى خبر من جانبه أو جانبنا، وعندما يعود، يكون «جلمود» قد دخل البيت معه أو قبله لاقتسام الأرباح التي لا يدخلها شكّ من أيّ طرف. وكانت عودة أبي تعني لنا في البيت عيداً وفرحاً نادرين، إلاّ أنّه عيد قصير لأنّ عليه أن يدخل المغامرة مجدّداً.

وإذا كان أبي قد استطاع بعد فترة قصيرة أن يكوّن رأسمالٍ خاصاً به وبنا، فإنّ ثروته الحقيقية كما قال لي، هي المعرفة الغنيّة التي اكتسب أثناء أسفاره. إذ التقى برجال كبار تحوّلوا إلى إخوة وأصدقاء حقيقيين وسنداً مدى الحياة. كان يقول لي بفخر: «لقد بنيت في كل وادٍ قصراً».

من جهته، كان حزام يؤكّد لنا بأن الأمراض ليست إلا كذباً وأوهاماً. أو ذريعة للهروب من العمل في الحقول الذي كان في نظره العلاج الوحيد لأيّ ظاهرة ضعف أو إرهاق. ومع هذا كان يعترف بمرض وحيد، وهو الموت.

«إعمل تسلم» هذا شعار حزام، وفي كل الحالات فإنّ الأمراض كانت تُشفى لوحدها وتزول. المرضى في القرية هم أولئك الذين لم يعد في إمكانهم أن يتحركوا مطلقاً، أو الذين يفقدون وعيهم. لم يكن من حقّ أيٍّ منّا أن يشتكي أو أن يبدي

ألماً مهما كان الألم. حتى النساء أثناء الوضع، كانت كل منهن تضع لوحدها، والولادة لم تكن إلاّ لحظة عابرة بين الحقل ومشاغل البيت. وكُنّا بالفعل نتعامل مع المرض كما تفعل النباتات والأشجار والحيوانات، مع فارق بسيط، هو أنّنا كنا بالغناء نعالج أنفسنا.

ذات يوم، وبدون استشارتنا، فوجئنا بأنّ الحكومة افتتحت مستوصفاً طبيّاً في القرية، حدث هذا قبل سنة من افْتتاح المدرسة كما يروي مؤرّخو القرية. وعيّنت الحكومة مُمرِّضاً مصريّاً لإدارة المركز وعلاج الناس. وكان يملك كلّ المواصفات التي تجعله مؤهّلاً لهذا المنصب؛ كان كبيراً في السنّ، ملتحياً ومتديّناً، وقد بدأ بإمام القرية وأعيانها، ممّا أهّله لكسب ثقة الآخرين بما في ذلك النساء، إلاّ زوجة حزام، لأنّ هذا الأخير أقنعها بأنّ الممرّض جلب معه كل الأمراض.

وفي أحد المساءات، كان «الدختور» ـ كما يسمّونه يومها ـ ضيفاً في منزلنا. رأى بعضَ الدمامل المتورّمة في قدمي أختي، توقّف فجأة عن الأكل وأخذ يعاتب أبي بقسوة. هذا الأب الذي كان قد قطع الجبال والصحارى مراراً عديدة وعرّض نفسه لخطر الموت بحثاً عن دواء لأختي/ ذاكرتي.

نذكر أنّه سافر بعيداً جداً، وأنها أخذته الأسفار مرّة إلى اليمن وراء عشبة كان يقال إنّها الشفاء، كلّ الشفاء.

قال «الدختور» إنّه ليس طبيباً، وإنّه لعلاج مثل هذه الحالة

لا بدَّ من الذهاب إلى المستشفى في المدينة التي كان يستعصي الوصول إليها. ولكن لأنّ أبي قد جمع من تجارته بعض المال، فقد أصبح بإمكانه أن يسافر بأختي وأمي إلى هناك.

بقيت لوحدي في البيت بالرغم من أنّني كنت بصحبة أخواتي بنات عمّي؛ كانت الكبيرتان متزوّجتين، ولأنّ الصغرى، كما نعرف، كانت في حالة عشق دائمة، فقد جاءتا لرعايتي أيضاً.

في هذه الفترة، احتفلت القرية بزواج أحد أبنائها، ذبح العريس ثوراً سميناً وشارك الجماعة في طهوه. اقتحمت رائحة اللحم كلّ البيوت، وفتحت كلُّ النوافذ. قُدِّمت الوجبة على عدد من الصِحاف الكبيرة، وتولى تقسيم اللحم بعض المحترفين الذين اعتادوا أن يعطوا كل رجل على قدر مكانته وسنّه، ثم يوزع الفتات على الصبيان. كان نصيبي يومها عظماً كبيراً ما زال عليه بعض القطع العالقة من اللحم والمخّ الذي بداخله لحسن الحظّ. ومن عادة أهل القرية في مثل هذه المناسبة أن يذوق كلّ منهم قطعة من نصيبه ويحمل البقيّة لأهل بيته، يُخفيها بين ملابسه وجسده، أي في «حِثاله» يرعاها من السقوط الحزام الأمين، وكنت حلفت على نفسي أن أحمل نصيبي كلّه لأخواتي. وحين عدت إلى المنزل أخرجت العظم من ملابسي وجسدي، رفعته عالياً أمامهنّ كما لو كان غنيمة كبيرة ونادرة. ظللن يشاهدنه عن بعد وكنّ سعيدات كم لم أرَهُنّ في حياتي، متأثرات وعلى يقين عميق بأنّ

لهنّ أخاً حقيقياً، جئن يقبّلنني وأيديهنّ تحتضنني من كل جهة، وعرفت أنّ هذا العظم سيظلّ في ذاكرتهنّ كأجمل هديّة تلقينها في حياتهنّ. وأدركت لحظتها بأنّي فعلاً ربّ العائلة وخليفة أبي.

بعد أيّام عاد أهلي إلى البيت. وما إن علم أبي بحكاية العظم العظيم، حتى قرّر على غير العادة أن يذبح خروفاً لنا بدون أن يشاركنا فيه أحد وبدون مناسبة. وطلب مني للمرة الأولى مساندته في الذبح والسلخ مما كان يعني لي ولادة ثانية، لأنه بدأ يعاملني كرجُل. ومنذ تلك اللحظة لم يعد لي الحق في أن أبكي أو أن أبدي خوفاً من أيّ شيء. فاجأني أبي أمام الأهل بأن أهداني سكيني الأولى بحزامها الملوّن كما كنت آمل. كانت عينا أمّي مملوءتين بدموع الحزن والفرحِ وهما تنظران إليّ كما لو أني سأغادر ذراعيها إلى الأبد، واحتفالاً من جانبها بهذه اللحظة قالت: «يا ولدي أنت امتداد لخالك، ومؤتمن على شرف أهلي» ثمّ أنشدت:

«والولد إن طاب، طيبه من خَواله وإن تـردّى فـادروا أنهـمْ خـائـبـين»

وناشدتني ألاّ أنسى هذا البيت ما دمت حيًّا. وعدتها مزهوّاً أن أفيَ بأحلامها، ومع ذلك أعترف الآن بأنّي لم أكن في مستوى الوعد لا بالنسبة لأهلي ولا لأخوالي.

العالم الآخر

أحدث افتتاح المدرسة انقلاباً على معظم القيم والتقاليد المتوارثة في القرية. منعونا من حمل سكاكيننا، وألزمونا بتقليم أظافرنا التي لم نكن نعلم بوجودها. ولبس الأحذية، والاستحمام أكثر من مرة في الأسبوع، أجبرونا على إطاعة أولئك الآتين من بلدان مجاورة، من مصر، سوريا والأردن.

وإذا كانت القرية تحلم أن تصنع من كلّ منّا رجلاً بمقاييسها، فإني لم أكن أحمل بذرة واحدة لتحقيق هذا الحلم. بينما بدت الحياة في المدرسة أقرب إلى حقيقتي الداخليّة. هنا وجدت نفسي تماماً، مما جعلني أكثر النباتات اخضراراً.

في المدرسة، في هذا الحقل الجديد، اكتشفت ما كانت القبيلة تحاول إلغاءه فيّ: «حقيقتي». وبدت لي اللغة في المدرسة أغنى وأكثر اتّساعاً من كل الحقول. كنت ألمس الكلمات، أداعبها، أقرأها، أكتبها، أتصورها. هنا أصبحنا أطفالاً فقط. هنا تعلمنا

واكتشفنا معاني أخرى للشجاعة، للضعف، للسُلْطة، للدفء، للذكاء. في المدرسة أصبح حمل السكين ممنوعاً إلى الأبد. في اختصار شكلت المدرسة لنا عالماً آخر نقيضاً لحزام وعوالمه الحادّة. عالماً يمكن فيه أن نضحك، أن نبكي، أن نتكلّم، أن نلعب، أن نكون ببساطة أطفالاً لا سكاكين.

منحتني المدرسة روحاً ولغة، وكوّنت لنفسي قاموساً من الكلمات التي لم نسمع بها من قبل في القرية، ومن تلك التي تحمل معاني عديدة ولم يكن لها سابقاً إلا معنى واحد. كنّا نسافر في كلّ كلمة. أجمل أسفارنا تلك التي تحملنا إليها القصائد والتاريخ والجغرافيا. أما أجمل الكلمات على الإطلاق فلقد كانت كلمة «العالم». وكان أن وافق أبي على أن أعتني بالكلمات أكثر من اعتنائي بالحقول، إلى اليوم الذي نويت فيه أن أُعلّم أهلي القراءة والكتابة، عندها سمعت أبي يقول خفية وبحسرة لأمّي: «آه لو أنّ أخته هي الولد».

وجدتني أمّي يوماً على حافة البئر التي يسبح فيها أولاد القرية، كنت أشاهدهم؛ بعضهم يذهب إلى الأعماق - حيث تتراءى لي المخلوقات المرعبة - ويعود سالماً بحجر أو دليل من القاع. أمَرَتْني بأن أتعلّم السباحة، رفضْت، فطلبت مني العودة مباشرة إلى البيت ومشاركة أختي في الأعمال المنزلية التي لا تليق بالرجال. تعلّمت السباحة لكي أظلّ ولداً لا أعرف الخوف ولا الهزيمة. في قرية كانت تعتبر الدوار الذي يصيب بعض الناس في

الأماكن الشاهقة نقصاً في الشجاعة والذكورة وأحياناً في العقل.

بعض آبائنا رأى في المدرسة معملاً لتجريدنا من كلّ قيم القبيلة وتراثها، وأن الحكومة تعدّ لنا مستقبلاً نقيضاً لذلك الذي قامت وتموت عليه القبيلة. مّما حدا ببعضهم إلى انتزاع ابنه من المدرسة، من الغرَق، ومنعه من الاختلاط نهائياً بأولئك الذين ظلّوا يرهنون أبناءهم لمستقبل مظلم!. والذي فاجأنا جميعاً، كان موقف حزام الذي أبقى ابنه في المدرسة بالرغم من انتقاداته العنيفة لها، وكنت الوحيد الذي جرؤ على مكاشفته بهذا التناقض وبدهشتنا، عندها قال لي بأنَّه ترك ابنه وديعة بين يدَي الملك المؤسِّس وفي مدرسته.

ـ لكن الملك المؤسِّس قد مات.

ـ الرجال الكبار لا يموتون أبداً.

لحسن حظّنا أنّ مدير المدرسة ذو أصول قروية «مِنّا وفينا» كما كنّا نقول. وقد حظي في القرية بسُلْطة لا تقل عن سُلطة شيوخها. بالرغم من بعض المآخذ على ماضي أسرته التي هاجرت من القرية إلى المدينة بفعل المجاعة، حيث يرى بعض الصامدين أو المتخلّفين في الهجرة عيباً بالرغم من أنّه وأهْلَه حافظوا على بيوتهم وحقولهم ومجمل ممتلكاتهم في القرية. بعكس أولئك الذين جرؤوا على بيع بعضها مّما يشكِّل انتهاكاً لقيم القبيلة وتجرداً من شرفها وأمجادها. وبعض هؤلاء «البيّاعين» لم يتردد منذ لحظة وصوله إلى

المدينة في ممارسة كثير من المهن التي تحرّمها القبيلة وأعرافها، وتظلّ حصراً على أولئك الذين ليس لهم أيّ انتماء قَبَلّي، ومن الحكايات التي ما زالوا يعيدونها باستمرار، حكاية ذلك الرجل الذي هاجر من إحدى القرى المجاورة إلى المدينة، وهناك عمل جزّاراً. وهي من أحقر المهن يومها، لكنّه صمد إلى أن أصبح من أكبر أثرياء المدينة، بحيث يمكنه أن يشتري قرية كاملة، وهو يردد بفخر أمام القبيلة الفقيرة بأنّه كان قد باع كل شيء حتى نصيبه في الرياح.

الكثيرون من آبائنا كانوا يجيدون قراءة القرآن، ويوماً طلبت من أبي التأكد مّما إذا كنت حفظت عن ظهر قلب إحدى السور. لكنّه بدا عاجزاً عن متابعتي في المصحف المطبوع الذي منحتنا إيّاه الحكومة، أدركت لحظتها أنه كان يقرأ بذاكرته لا بعينيه، وأنّه لا يمكن أن يقرأ خارج المصحف الذي اعتاد عليه، مّما ضاعف من احتقاره للمدرسة، وإن كان سعيداً بأنّ المدرسة منحتنا مصاحف تليق بنا وبها، بينما ظلّت مصاحفهم المخطوطة بمنأى عن هذا الغزو. وكان يردّد باستمرار قوله تعالى: «لا يمسّه إلا المطهّرون».

قبل افتتاح المدرسة، كان للقرية نظامها التربوي الخاص. وهكذا كنت أسمع أمّي تردّد هاتين المقولتين باستمرار: «من ليس فيه ثلاث خصال من القطّ فليس إنساناً: يُكملُ غذاءه، يعرف أعداءه ويكبس أذاه.

ومن ليس فيه ثلاث خصال من الحمار فليس إنساناً: يُكثِرُ

شُربَه، يحمل كرْبه ويعرف دربه».

أمّا مدير المدرسة، فقد نجح في إقناع آبائنا بأنّنا أصبحنا أبناء الحكومة التي ـ كما يقول ـ تسهر على بناء مستقبلنا، لنصبح يوماً ما مديرين مثله، ضبّاطاً، وربّما وزراء. كلمات لم نسمع بها من قبل. وحين طلب منّا أستاذ اللغة العربية التعبير كتابة عمّا يودّ كلّ منا أن يكون في المستقبل، كنت قد نسيت المفردات السابقة، ولم يبق أمامي إلاّ أن أختار القمّة، فاخترت أن أكون ملكاً، بينما حافظ جاري على أحلامه وأحلام القرية وتمنّى أن يصبح راعي غنم وأن يعيش بهذه الوظيفة مع قطعانه إلى أن يموت.

لم يحدث أن ذهبت إلى المدرسة قبل أن أذهب إلى الحقول لمساعدة أبي، مثلما يفعل كلّ الزملاء. إذ كان أبي يعود من المسجد بعد صلاة الفجر وتكون أمّي قد أعدّت القهوة وأطعمت الثور. أستيقظ بدوري وأصليّ ثم نغادر ثلاثتنا: الثور، أبي وأنا، وكلّنا حفاةٌ كالثور، أحمل ملابسَ المدرسة وحذاءها على كتفيّ ومعها بعض أدوات العمل الزراعي، أعمل في الحقل، في البرد، في الطلّ والندى، إلى أن تأتي أمّي لاستلام الأمانة، أرتدي ملابس المدرسة وحذاءها وأذهب.

كنا نصطفّ في طابور الصباح أمام المدرسة، عددُ الأحذية أقلُّ من عددنا، تحت مراقبة أساتذتنا، كلٌّ منهم يشرف على فصله وعلى نظافة كلٍّ منّا، وكانت مهمّة صعبة بالنسبة لهم. لأنّنا أتينا جميعاً من الحقول، من نظافة أخرى لا تعترف بها المدرسة ولم

تستوعبها، ولأنّي كنت الأول في فصلي، فقد كلّفني مدير المدرسة بإلقاء تحيّة العَلَم الصباحيّة، عَلَم الحكومة الذي ألغى أعلام القبائل. أرفعه بيديّ وأهتف بحياة الملك وولي عهده ووزير المعارف ورجال التعليم، ويهتف ورائي كلّ الطلاب، بينما كنّا نسمع آباءنا يغنّون نشيد الحقول ويحتفلون بها.

ذات صباح، جاء ابن أحد شيوخ القرية إلى المدرسة بقميص وبنطلون، تماماً كأساتذتنا القادمين من مصر، والأردن وسوريا. ممّا أثار دهشتي وغيرتي. رجوت أبي أن يشتري لي لباساً مماثلاً مهما كان ثمنه. سافر إلى المدينة، عاد بعد أربعة أيّام يحمل لي بزّة عسكريّة اشتراها من أحد الجنود. الهاربين كما قال، بدون أن يروي لي حكاية هذا الجندي، في اليوم التالي، كنت أوّل من وصل إلى المدرسة، وكنت أحسّ بأنّي أجنبيّ في ذلك اللباس، وقد اشتركت أسرتي في إنجاز هذا الانسلاخ. أمسكت بالعَلَم، رفعته بكلتا يديّ، وكلّما هتفتُ بصوت عالٍ «يعيش الملك»، كنت أحسُّ بأنّ حزامي ينحلّ، وهو حزام من قماش كانت أمّي قد لفّته حول بنطلوني الواسع والطويل أكثر من لفّة، وثنّته من الأسفل مرّات عديدة إلى أن بدا وكأنّه على قياسي، وعندما وصلت في هتافي إلى «يعيش الوزير» كان البنطلون قد سقط على الأرض. ولم أكن أحمل على جسدي غير ذلك البنطلون.

ولحسن الحظّ أن القميص كان طويلاً فسقط على جسدي ببطء إلى أن غطّى عورتي، أسرع أستاذي لإنقاذي، أعاد بنطلوني

إلى مكانه وكأنه يثأر لقبيلة «البنطلونات» إلى أن أنهيت ذلك الهتاف. وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة بلباسي القديم الذي يحتمل الهتاف ويليق به.

في القرية، كان كلٌّ منّا يعرف الآخر تماماً. كنّا نسبح عراة في بئر واحدة، الكبار والصغار. أمّا هؤلاء القادمون الجدد، أهل البنطلونات، فلم يجدوا في القرية أيّ دورة مياه. وكانوا يثيرون الدهشة حتى لدى الحيوانات التي كانت تهرب من طرقاتهم. كنّا نراهم يبولون واقفين كالشياطين كما يصفهم بعض القرويين الذين رفضوا أن يعلّم أولادهم أناس هذه طباعهم. وكانوا ينامون في أوقات متأخرة وتنبعث من بيوتهم روائح طبخ غريبة وشهيّة، ويستحمّون على ما يبدو كل صباح، ويتمخطون في مناديل يعيدونها قذرة إلى جيوبهم. حتى برازهم كان مختلفاً لأنّهم كانوا يأكلون الخضار والبيض وبعض الأعلاف الّتي لم نكن نعرف طبيعتها، ويدّعون أنّها تصلح غذاءً للإنسان وأنّها مملوءة بالڤيتامينات، ويأكلون أشياء أخرى لم تعرفها القرية من قبل. و«بفضلهم» عرفت القرية القُمامة، وكنّا قبلهم لا نرمي إلاّ الرماد.

أصبح آباؤنا يرون في المدرسة حرباً معلنة من الحكومة عليهم، لأنّ قريتهم التي صمدت لوحدها أمام الجيش العثماني وانتصرت عليه، تجد نفسها الآن مجبرة على تسليم أولادها ـ مستقبلها ـ لهؤلاء الأجانب الذين يبولون واقفين.

كانت كل القرى المجاورة تُسمّي قريتنا «الوطن» وقد كانت

وطناً لهم جميعاً، فأغلب القرى كانت تعيش في أمان بحكم اتّفاقيّات الحماية التي أبرمتها مع قريتي، وذلك بالرغم من أن جدّنا القديم جاء إلى هنا هارباً من منطقة بعيدة، هذا ما ترويه أسطورة القرية أو تاريخها، إذ كانوا سبعة إخوة، وكانوا في حرب مع جيرانهم. قتل السبعة الإخوة سبعة من القبيلة المعادية، وللحفاظ على حياتهم أمرهم أبوهم «يغلى» بالرحيل في الليلة التالية والتشتّت في بقاع الأرض؛ أحد هؤلاء السبعة، «جدّنا القديم» اختار أن يجاور مالك القرية الأساسيّ، هذه التي أصبحت في ما بعد قريتنا وأرضنا وحدودنا.

جاء هذا الجدّ مع ابنته الوحيدة التي أشعلت المالك القديم بجمالها وذكائها. عرض على أبيها ما يريده من مهر لابنته؛ من مال وماشية وسلاح، لكنّ الأب كان يبحث عن أرض، عن وضع حدّ لهذه المجاورة المعيبة، فاتفق مع المالك الخاطب أن يقيم سباقاً مع ابنته. تتقدّمه البنت بسبع خُطى ثمّ ينطلقان، والأرض الّتي تقطعها قبل أن يلحق بها المالك، تصبح مهراً لها. قَبِل هذا الأخير، وانطلقا أمام عيني الأب، القاضي والحكم، كانت الأرض شاسعة مثل أحلامه، غابا عن عينيه. اخترقت شوكة قدم الفتاة مما أعاقها عن امتلاك كامل الأرض. لحق بها المالك وتزوّجها، وتحوّل من مالك إلى مجاور لجدّنا الذي أصبح بين يديه أكبر مساحة في المنطقة مقارنة بالقرى المجاورة. وتحولت هذه الأرض عبر الأجيال إلى قلعة حقيقية ما زالت في كثير من مبانيها إلى اليوم آثار المدافع المعادية وخاصة العثمانية.

وقد عثرت في طفولتي على وثائق الصلح التي أبرمت بين القرية والدولة العثمانية في صندوق لدى أبي. إلى أن أحرقها أمام عينيّ بناءً على مشورة أحد أصدقائه الذي رأى في هذه الوثائق خطراً على أبي وعلى قريته، وكان أن فعل إمام القرية الشيء نفسه، إذ أحرق ودفن المصاحف المخطوطة التي كانت في المسجد، بعد أن استلم كميّة كبيرة من المصاحف المطبوعة، وهكذا رأيت ذاكرة القرية تحترق أكثر من مرَّة.

كنّا على موعد مع الشمس كلّ صباح، والقرية تستيقظ بمجملها قبل شروق الشمس. بل كنّا في الحقيقة نحن الذين نوقظها، وقد اعتاد أبي أن يقول لي إنّ الشمس ليست إلاّ أداة عمل في القرية. ولا نذكر أنّها غابت أبداً أو اختفت وراء السحب مهما كانت كثافتها. كان المطر يجيء في عزّ الشمس التي تغسلنا كل صباح وتمنحنا قوى جديدة.

النظافة كانت مرادفاً للقرية، والقذارة أذى. وقد اعتدنا على إماطة الأذى ليس عن الطريق فحسب ولكن عن كلّ شيء.

إلاّ أنّ المدرسة قرّرت يوماً أسبوعياً للنظافة، ممّا أثار انزعاج أهل القرية، لأنّ الأيّام كلّها نظيفة، وخصوصاً يوم الجمعة، وحدّد مدير المدرسة يوم السبت اختباراً لنظافتنا، وَوَضَع جائزة لأنظف طالب مِما دفع الأهالي إلى أخذ هذا الموضوع بجدية ونظافة أيضاً.

ألزم أهلي أختي بهذه المهمّة، وذهبنا صباح جمعة إلى قمّة

جبل حيث نعرف حوضاً طبيعيّاً مملوءاً بالمياه المتجمّدة تقريباً.

خلعت أختي ملابسي وتناولت حجراً يشبه المنشار لتفرك به جسدي.

تجمّد الحجر ويدها وجسدي الذي تحوّل بعد الغسيل إلى شبكة معقّدة من الخيوط الشبيهة بالجراح. من أجل مجد المدرسة ومكافأتها.

في صبيحة اليوم التالي، لم نكن إلاّ ثلاثة طلاّب في السباق، فاز أحد أقربائي وكانت أُخته أجمل من تلك التي غسلتني، وقد اتّضح في ما بعد أنّه اغتسل بصابون لا يعرفه في القرية ويستعمله إلاّ هؤلاء «الأجانب»، وقعت الشبهة على أحدهم، أخضعته القرية لرقابة صارمة في الليل والنهار إلى أن غادر المدرسة والقرية معاً. وكانت هذه الجائزة هي الأولى والأخيرة.

إعتاد الرجال أن يستحمّوا في ساحة المسجد التي تحتوي على مكان يشبه الحمّام. يحدث هذا قبل صلاة الفجر. وهذا الاستحمام الصباحيّ شهادة حيّة على أنّهم قضوا ليلة ممتعة مع زوجاتهم. وهم ملزمون دينياً بالاغتسال قبل الصلاة حتى لو مارسوا الجنس بكامل ملابسهم.

كانت أمّي تحذّرني من ممارسة الجنس عارياً مع امرأة، لأنّ صدر المرأة قادر على إحراق الأرض. ولكي لا أحترق، أقسمَتْ لي أنّ رجلاً في قريتها اختبر صحة هذه المقولة. ذبح خروفاً ونزع

جلده بأقصى سرعة ووضع الجلد على صدر زوجته ثمّ ضاجعها، وبعد ذلك اكتشف أنّ الجلد كان قد أصبح أسود بفعل الحرارة الّتي تنبعث من صدر الزوجة. هذا الدليل القاطع على حرارة النساء ظلّ معلّقاً في قريتها أمام الجميع أشهراً عديدة. في كلّ مرة أعود من المدرسة بنتائج متميّزة، كنت أرى أبي يفرك يديه فرحاً ويقول: «تحقّقت، تحقّقت»، ثمّ يقبّل أمّي.

قبل ولادتي، رأى في المنام ضوءاً خافتاً، أخذ يسطع، يسطع إلى أن أضاء الأرض. ذهب أبي إلى إمام القرية يسأله عن سرّ هذه الرؤيا. أشعل فيه الإمام ضوءاً لم ينطفئ طوال حياته، إذ قال له: «سترزق بولد يصل علمه وخبره إلى كلّ مكان في الأرض ويملأ عينيك طمأنينة ونوراً ما دمت حيّاً ترزق».

وإذا كنتُ بقيتُ حلماً قد يتحقّق بالنسبة لأبي يوماً ما، فإنّي كنت في الغالب كابوساً بالنسبة لأمّي الأكثر واقعية. أذكر أنّي تشاجرتُ مع أختي ذات يوم، فأقسمت أمّي أن تنتقم لها، ولأنّي أعرف أنّ أبي لم يكن ليقف إلى جانبي أمام أمّي، لجأت إلى تلك المرأة التي تتمنّى أن أظل صغيراً مدى حياتها لكي تظلّ تُقبّلني على فمي. وأقسمت لها بأنّ أهلي يدعونها هي وأطفالها إلى تناول العشاء معنا، وكانت قد أعدّت عشاءً لأطفالها والوقت متأخّر أيضاً مما جعلها تشكّك في صحة هذه الدعوة. لكنّني ظللت واقفاً على بابها. وأقسمت لها ثانية بأنّي إن لم أعد بصحبتهم جميعاً فإنّ أمي ستضربني. فاقتنعتْ بأنّ أمّي أرسلتني بالفعل لدعوتها وهي تقول:

«كم أنا محظوظة وأطفالي بأن يكون لنا جيران مثلكم». وعندما فتحت أمّي الباب صرخت للمفاجأة. والضيفة اعتقدت بأنّها صرخة فرح، وذهب أبي بدوره ليذبح الديك الوحيد في البيت الذي كان يوقظه كل صباح قبل أذان الفجر.

ظلّت هذه الأمسية عالقة في ذاكرة أمّي. فمن عادتي عندما أغضب أن أقاطع الأكل، متعذّراً بالرغبة في النوم، غير أنّها كانت ترفض هذه الحيلة وتلزمني بمشاركتهم الوجبة، إلاّ في تلك الأمسية حيث سألتني أكثر من مرّة ما إذا كنت راغباً في أن أنام. لكني كنت أتجاهل هذه التساؤلات كما لو أنّي لا أسمع شيئاً.

يومها، كنّا ننام نحن الأربعة في غرفة واحدة، أبي لوحده وبجانب وسادته يضع حزامه وجنبيّته وعصاه. لم يكن ينام. كان ينتظر الأذان. وأمّي وأختي وأنا ننام معاً. في تلك الليلة ذهبت أختي تؤانس السيدة وأطفالها. وتمنّى لي أبي نوماً سعيداً كعادته. لكن النوم لم يأت في غياب رائحة أمي. غادرْتُ فراشي بحثاً عنها. كانت على سطح المنزل قريبة من السماء والنجوم، وكان لديّ يقين عميق بأنّ النجوم ليست إلاّ كلمات، وما على أمّي إلاّ قطفها وصياغتها أغنيات. ليلتها أدركت بأنّ أمّي ستعاقبني بالغناء لأنّها كانت تعرف كيف تفجّرني بالنشيد. بكيت ووعدتها أن أكفّ عن مشاحنة أختي إلى الأبد. «أختك أغنية. قل لي كيف يمكن لأحد أن يضرب أغنية؟» قالها أبي الذي حينما لم يجد النوم، لحق بنا على السطح قريباً من السماء والنجوم.

لكل نشاط في القرية غناؤه الخاص. لا أحد يعمل شيئاً دون أن يُغنّي. كنّا نغنّي لكلّ شيء. كما لو أنّه لا يمكن أن يوجد أو أن ينمو شيء بدون غناء. كنّا نغنّي لترقص الحياة، وهو ما كانت تفعله دائماً.

روت لي أمّي يوماً أنّ قريتنا كانت في البدء أُغنية فريدة، تماماً كالشمس والقمر، وأنّ الكلمات التي يمنحها الناس طاقة شعرية، تطير كالفراشات، بعضها، الأكثر غنى لونيًا والأكثر جمالاً تطير بخفة لا مثيل لها، ولأنّ قريتنا هي بالتأكيد، الأقرب إلى السماء، فإنّ هذه الكلمات الشعرية تجد فيها أفضل مكان للتباهي بمكنوناتها، ولكي تضيء العالم.

كُلّنا شعراء، كانت أمّي تقولها دائماً: الأشجار، النبات، الزهور، الصخور، الماء.... إذ يكفي أن تصغي للأشياء لكي تسمعها تُغنّي. هكذا قامت الحياة هنا، منذ أن استنبت أجدادنا أوّل الحقول.

امتزجت أصوات غنائهم بالأرض مثل السماد، وعليك أن توقن بأنّ هذه الثروات الطبيعية التي نسمع عنها ليست إلاّ ثمرة هذا التوحّد. هنا يولد الأطفال وهم مبلّلون بالغناء. يمتزج بأجسادهم من ولادتهم إلى الموت، وهؤلاء الذين ندفنهم يتحوّلون إلى أغنيات داخل الأرض.

أخبرت حزام بهذه الرواية، فبدا على اتّفاق مطلق مع أمّي،

لكنّه أضاف: «أعرف أن آباءنا وأجدادنا كانوا يغنّون حتّى في نومهم، لكنّهم لم يغنّوا أبداً إلاّ للإشادة بالعمل ونُبْلِه. نعم، لم نكن نغنّي إِلاّ لتمجيد العمل، إلى أن جاء هؤلاء «الطَرَف»، ولأنّهم لا يقيمون علاقة مع الأرض، فقد فتحوا الحقول والعقول لشتّى أنواع الغناء. كانوا أحراراً ولذا كانوا يغنّون لكلّ شيء. المطر، السفر، العبودية، الحبّ، الحزن، الضيافة وكلّ ما يُلهمهم. بعضهم للأسف حوّل الشعر والغناء إلى وسيلة استرزاق وابتزاز، والباب المغلق في وجوههم يلقى أعنف الشتائم والسباب علناً وأمام أعضاء القبيلة كلّها. ولهذا فَقَدَ الشعر شيئاً من نُبله، هذا ما لاحظته، ولذا توقّفتُ عن الغناء. في حين أنّ بعض الناس، أُمّك مثلاً، سيدّعون بأنّه بفضل هؤلاء «الطرف» أصبح الناس يعملون بجديّة وإبداع أكثر من الماضي. بل إنّهم يعملون بفرح ومتعة لا مثيل لهما. هذا نسبياً صحيح، لكن أكثر ما ألوم عليه هؤلاء «الطرف»، هو أنّهم جلبوا معهم الرقص، الملابس المزركشة، الحنّاء، القهوة، السُكّر، أدوات الحرف، السجّاد، وخاصة المفاتيح التي أصبحت تغلق كلّ الأبواب. قبلهم كانت مشرّعة، ومن مآخذي عليهم أيضاً هذا التداخل بينهم حتى في أجسادهم، رجالاً ونساء، إذ يكفي أن تتذكّر ذلك الرجل الذي استطاع إرضاع ابنته، والقبائل كلّها تعرف هذه الخصوصيّة لديهم وتعترف بها، ممّا يمنحهم الحقّ في السفر عبر الجبال والصحارى بدون أن يعتدي عليهم أحد. يكفي أن يحمل أحدهم علماً أبيض في ناصيته رأس ديك لكي يمرّوا بسلام بين قطّاع الطرق ومحترفي الثارات، بينما

نعيش نحن بين خيارين، البقاء في قرانا، أو السفر المحفوف بالموت في أيّ لحظة ومن أيّ جهة. ولا أخفيك أنّي أصاب بقشعريرة عندما أسمع أباك يقول بأنّه من دونهم ما كان في إمكان القبيلة أن تعيش، حتى لو كنت أعرف جيداً أنّه قضى شبابه في الغناء والسمر والرقص مع هؤلاء من قرية إلى أخرى ومن عرس إلى عرس».

- في المدرسة علّمونا أنّ المسلمين سواسية.

- أخبر أباك بهذه المساواة، سيكون سعيداً بالتأكيد!

يمتاز «الطرف» عادة بالوسامة وبجمال نسائهم وبناتهم. وهم يلبسون ويأكلون أفضل منّا، ومنهم من هو أكثر كرماً من معظم أبناء القبائل.

كنّا نسمع ونعرف قصص حبّ عميقة بين العالمين، لكنّها لا تتوّج أبداً بزواج.

نحن نتزوّج بالحقول، نحن أصحاب جذور، قالها حزام. بينما «الطرف» مخلوقون من الرياح، فكيف تودّ أن نتزوّج الرياح؟

ذات يوم، بينما حزام يحدّثني، مرّت زوجة صاحب الحانوت الوحيد في القرية، والتجارة إحدى المهن القاصرة على «الطرف». وعرضَتْ على حزام أن يشتري بعض الحنّاء لابنته. كانت هذه السيدة تفوح روائح أخّاذة من جسدها، شعرها وملابسها.

«لا أعرف كيف يمكن أن نصنع الجمال والزينة صُنعاً» قال لي حزام. وأضاف: «ليس أمام الإنسان إلاّ خيار واحد، أن يكون قبيحاً أو وسيماً.

والحقيقة أنّه ليس هناك أجمل من العمل في الحقول والأرض».

والكلمات لدى حزام لا تحمل إلاّ المعنى الذي يريد هو وحده ممّا أجبرني خلال صحبته أن أنظّف الكلمات من الشوائب التي لا يريد أن يسمعها. ومثله أمّي، كانت تقول إنّ إحدى مآسي الإنسان الكبرى هي أنّه لا يملك عُنقاً طويلاً مثل عنق البعير، يسمح له بمراقبة الكلمات وتنظيفها قبل أن تخرج من فمه لأنّ بعضها أكثر خطورة من الرصاص.

إحدى أساطير القرية الّتي يتداولونها إلى اليوم، تقوم على أنّ الشاعر الحقيقي هو الذي يوقظه الجنّ في عزّ النوم ثم يسقونه حليباً ممزوجاً بالشَعْر فيصبح شاعراً.

وقد روى لي أبي أسطورة أخرى وهو على قناعة تامّة بصحّتها. يقول: إنّ القرية كانت غنيّة بالثعابين من كلّ نوع. منها «الملائكة» كما يسمونها، المتصيّد والأسود وغيرهما. أمّا الملائكة فهي تلك التي ترفع رأسها عالياً عن الأرض عندما تلتقي بإنسان. وقد اعتاد الناس احترامها وتلافي إيذائها أو قتلها، لأنّها عندما ترتفع فإنّما تطلب السلام وتُشيعه، في حين أنّ الأسْوَدَ إمّا أن

يقتُل أو ينتحر. ومن هنا تعلّم الإنسان من الثعابين معاني ورموز السلام والحرب. ولذا فإنّه عندما يقابل إنسانٌ آخرَ في الطريق بدون أن يُسلِّم عليه رافعاً رأسه، فإنّ ذلك يعني إعلان الحرب.

في بعض المساءات، كان أبي يناديني ليريني ضوءاً خافتاً يأتي من بقايا قرية مندثرة. إنّه ثعبان يحمل ضوءه في فمه. يقيم هناك لحراسة الكنوز التي أخفاها الأوّلون. بعض رجال القرية يدّعون أنّه يتمّ إيقاظ أحدهم مثلاً من نومه، لا ليشرب حليباً ممزوجاً بالشَعْر، وإنّما لتنبيهه إلى وجود كنز مخفيّ في مكان معيّن، يحدّده ذلك الذي أيقظه، مشترطاً عليه، للفوز بالغنيمة، أن يذهب في الحال للبحث عن الكنز، وما عليه إلاّ أن يعود إلى بيته بدون أن ينظر إلى الخلف أو اليمين أو اليسار مهما كان الرعب الذي يحوط به، والذي تثيره الجنّ عادة لاستعادة الكنز.

ويضيف أبي لهذه الأسطورة هذه الخاتمة وهي أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضحك إلاّ إذا التقى ثعبانٌ وامرأة، لأنّ كلاً منهما يخاف الآخر ويهرب منه.

أَخَواتي/ذاكرتي

كان لي حينها ستّ أَخَوات. أختي من أمّي وأبي، «شقيقتي» التي أسمّيها أختي/ذاكرتي، وأختان من أمّي، إحداهما أختي التي تحبّني، والثانية أختي التي أُحبّ. وثلاث أخوات من عمّي لأبي أختي/أبي، والثانية أختي/أنا والثالثة أختي/أُمّي.

لم يكن أحد يومها يعرف هذه العلاقة بيننا إلاّ أمي، ثم تزوّج أبي ثالثة ومنحني أختين هما أختاي/بنتاي. وهكذا أبدو اليوم غنيًا بثماني أخَوات. ولي أيضاً ثمانية أسمياء، مفردها «سميّ» وهم أولئك الصبية الذين سمّاهم أهلهم باسمي، ومن تقاليد القرية أنّ السميَّ مسؤول عن سميِّه مدى الحياة، مسؤوليّة تقارب مسؤوليّة الأب الحقيقي. ومن بين الذين راهنوا عليّ، كان حزام الذي سمّى ابنه بي. حزام الذي لم يكن يتوقّف عن أكل التمر والزبيب، وأشهد أنّي لاحظته هكذا حتّى في الصلاة. هذا الرجل لم يستطع أن يموت كما قال لي. ولم يخضع لكلّ المتغيّرات التي بدأت تجتاح

القرية. اختفى جيله منذ زمن، وعندما يتذكّر أو يقال له إنيّ في باريس، فإنّه يرسل لعنة على تلك اللحظة التي عُرفت فيها المدرسة. وكان قد كشف لي جزءاً من أسباب احتقاره للمدرسة، وهو أنّ المدرسين كانوا يحلقون لحاهم وشواربهم يومياً وبعناية فائقة، والرجل الذي بلا لحية هو رجل كذّاب كما يؤكّد حزام، واللحية بالنسبة للقبيلة كانت وما زالت دليل الصدق والشرف. وعموماً فإنّ الرجل الذي بلا شَعْر في نظر حزام رجل ناقص.

وكنت أعرف عناد حزام وتطرّفه وتشبّثه بآرائه التي لا يؤمن بغيرها إطلاقاً. كان ينتقدنا بعنف. يحتقرنا. يبصق في وجوهنا أيضاً عندما يرى ولداً لا يحمل حزاماً وسكّيناً. بطن الرجل بالنسبة لحزام لا بدّ أن يكون ملتصقاً بظهره، مثل بطن الذئب. ويحتقر الأحذية لأنّها تفصل الإنسان عن الأرض، عن الحياة. لا يؤمن بالحُبّ وتفاعلاته وآثاره، ولا بالألم أو التعب، ولا بالاستراحة قليلاً تحت شجرة. ولا يحترم مطلقاً أولئك الذين يأكلون بشراهة ونَهم. ولا الذين يستيقظون متأخراً، ولا الذين يضحكون بأصوات عالية. حتى نزهة قصيرة كان يعتبرها عيباً. ولعلّ أكثر ما كان يثير غيظه هو أن يرى شاباً يقود سيّارة. لم نكن نخبره بأنّنا ركبنا الطائرة مثلاً، أو أنّنا أقمنا في فندق أو أكلنا في مطعم. كان يسخر من أولئك الذين ينقلون أخبار العالم ويتّخذونها موضوعاً لأحاديثهم، خاصة عندما يأتي الحديث عن مصر والمصريين، لأنّه يتذكّر مباشرة دورهم في تكريس المدرسة ومنجزاتها التي لم تكن بالنسبة له إلاّ طريقاً إلى الكوارث. وعندما عرف أنّ أبي أدخل

الأرزّ والبصل إلى بيتنا لأوّل مرّة، لم يتردّد في المجيء إلى البيت وتأنيب والدي على خيانته لعادات القرية وتقاليدها.

لم يكن حزام يمحض النساء أيّ احترام. ولقد رهَن حياته كلّها للانتصار للرجل ولتمجيده. كان يعرف كلّ أولاد القرية، ولم يكن يعرف بنتاً واحدة. كان يمارس إرهابه علينا كلّنا بلا استثناء، وخصوصاً على النساء. كان يحاصرنا في كلّ شيء، يحرمنا من الحياة كما نودّ. حتى في المسجد، حيث كان يحضر أوّل الناس، لا للتعبّد فقط، ولكن أيضاً لمراقبة سلوك الشباب، لأنّ المسجد كما يقول سيظلّ هو القلعة الحقيقية لمقاومة هذا الانهيار.

نادراً ما كان حزام يتكلّم، لكن إيماءاته وحركاته كانت أكثر تعبيراً من كل الكلمات. ولا شيء يسعده إلاّ المطر والأرض. لم يعرف الراحة على الإطلاق، حتى في الليل. كنّا نسمع ضجيجاً في الطابق الأرضي من بيته كلّ ليلة. بعضهم يفسّره على أنّ حزام عثر على كنز هائل. وأنّه يتفقّده في الليل ويحصي ثرواته التي لا يعرفها إلاّ هو. والذين سمعوه لأوّل مرّة، هم أولئك الذين اعتادوا قضاء ليلهم في الرقص والسمر والتجوال. وهم غالباً من العزّاب، ومن بين عاداتهم التي تعارف عليها أهل القرية منذ القدم، التنصّت لتلك الليلة الأولى بين الزوجين الجديدين. يتسلّقون منزل العريس من كلّ الجهات إلى أن يقتربوا من غرفة النوم التي تجمعه مع زوجته في ليلة فضّ البكارة ليسمعوا صراخ المرأة وليقيسوا عن قرب فحولة العريس وشجاعته. وفي صباح

اليوم التالي، تحتشد القرية رجالاً ونساء في بيت العريس ليروا جميعاً آثار المعركة على وجه العريس، وليروا أيضاً ما إذا كانت العروس تمشي وتباعد بين رجليها، وما إذا كانت ملابسها المنشورة على السطح تحمل آثار دم البكارة. أقرباء العروس «البكر» يبدون زهوهم وفخرهم بابنتهم، وخصوصاً الأمّ التي تفاخر بأنها ربّت ابنتها ضمن أرقى تقاليد القبيلة وقيمها.

حزام من جانبه كان يهنّئ العروس البكر بأن يسلّم عليها في اليوم التالي وهو السلام الأوّل والأخير في حياتها من حزام.

لم تعش أمّي أيّا من هذه الخيبات، حتى مع أختي الكبيرة من أمّي التي أُجبرت على زوجها الأول، لأنّ أباها الغنيّ كان يود لها زوجاً من عائلة غنيّة في حين لم تكن تحبّه. ومنذ الليلة الأولى انتظرت انشغال الرجال بالوليمة لكي تغادر بيته خفية في الظلام. اجتازت طرقات وعرة وخطيرة في الليل إلى أن لجأت في بيت خالي الذي حماها ورعاها إلى أن تمّ فسخ هذا الزواج المرير. بعدها تزوّجت برجل تحبّه. هذا الرجل يشبه كثيراً أبي حتّى في فقره. تماماً كتلك الحالة التي عاشتها أمي، لكنها قبلت هذا التحدّي، تخلّصاً من الفقر والبؤس، وأنجبا بنتين وأربعة أولاد، وهو العدد نفسه الذي بقي لأمّي. لكنّها أنجبت أقلّ من أخواتي الأخريات.

في المستوصف، حيث يعمل زوجها، ربطته بإحدى العاملات علاقة حبّ عميقة، واكتشفت أختي سريعاً بعض التغيّرات التي طرأت عليه: العودة متأخّراً، الذهاب مبكراً إلى

العمل في أبهى ملابسه المعطّرة أيضاً، والأغاني التي بدأ يردّدها باستمرار. وانتشر الخبر بسرعة في كلّ القرى. وذات مساء، عاد من عمله ليجد الباب مُغلقاً في وجهه. نادى أختي، وعندما فقد الأمل، بدأ يصرخ إلى أن فتحت القرية نوافذها وآذانها.

«ليس أمامك إلاّ أن تذهب إلى بيتها، قالت له أختي. كلّ القبائل تعرف أنّ كلاً منكما مغرم بالآخر. أمّا هنا فهذا بيتي، ولا يمكن أن تلجه بعد الآن».

هدّدها بأن يرفع الأمر إلى أبيها وأخوانها. لم تتراجع، بل نصحته بأن يكشف لهم بأنّه عاشق. ركب سيّارته متّجهاً إلى بيت أبيها. «لو علمت أمّي في قبرها لاعتزّت بابنتها، ربما أكثر من اعتزازي بهذه الأخت». ذبحوا خروفاً إكراماً له. وأرسل الأب اثنين من أبنائه الأحد عشر لإحضار أختي، لكنّها رفضت وعادا لوحدهما. وهنا أدرك أبوها فداحة الموقف، فرافق الزوج إلى بيته. وهناك نادى أختي قائلاً: «يا بنتي ها قد أعدْتُ لك «زوجتك»!

ضحك الزوج وعاهدهما ألاّ يخونها ثانية، فُتح الباب مجدّداً، وأغلقت القرية آذانها ونوافذها.

أسبوع المدينة

في المدرسة تعلّمنا بعض الأحاديث التي يحثّ فيها رسولنا على طلب العلم: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، وذلك الأثر الذي يقول: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». لم تكتف المدرسة بأن أقامت بيننا وبين القرية ما يشبه القطيعة وإنّما ها هي دعتنا إلى السفر، نحن الذين كنا نتعامل مع سكّان القرية المجاورة على أنّهم أجانب. لكنّهم يظلّون أقلّ أجنبيةً من هذه الكلمات التي تعلّمناها في المدرسة، وهو ما يسمّونه «الفصحى». تلك الكلمات الغريبة التي لم يسبق أن سمعها أو استعملها أحد في تاريخ القرية. أذكر أنّي حفظت كثيراً من الكلمات التي لم أكن أعرف معناها ولم تكن مجدية أبداً في القرية. لكنّ هذا الأمر كان يدهش أستاذي في مادّة التعبير والإنشاء الذي حرّض أبي على أن يشتري لي بعض المجلاّت والجرائد لكي أكتشف ما كان يسمّيه القراءة الحرّة.

ليوم الجمعة قدسيّته عند المسلمين، وهو يوم عطلة ويوم

سوق في القرية يشتري لنا أبي اللحم والعسل، ويعطيني وأختي الكبد والكلى نأكلها نيئة، وقليلاً من العسل الذي يحتفظ به للضيوف في الغالب. ونادراً ما يبقى في القرية بيت بلا لحم يوم الجمعة، لأنّ كلاً يعطي جزءاً مما اشترى لجيرانه، وهذا ما كانت تفعله أمّي غالباً، بمعرفة أبي الذي كان يبدي تجاهلاً كريماً.

في السنة السادسة الابتدائية، أصرّ مدير المدرسة على أن تذهب مجموعتنا إلى المدينة بحثاً عن تاريخ ميلاد حقيقي لكلّ منّا مرفقاً ببطاقة الهويّة. كنت أكثر مجموعتي معرفة وثقافة وانفتاحاً على العالم، لأنّ أبي اشترى لي يوم جمعة مجلّتين كانت تصدرهما كبرى الشركات النفطية، باعهما أحد العاملين القدامى في هذه الشركة. وكانتا بقايا ثروته.

للذهاب إلى المدينة، كان علينا أن ننتظر إلى يوم السبت، وهو اليوم الوحيد الذي تأتي فيه سيارة وحيدة أيضاً لتنقل الناس من القرى إلى المدينة. حدّثتُ زملائي عن أنّنا سنرى في المدينة رجالاً يلبسون مثل أساتذتنا، ولربّما نرى نساءً ببنطلونات. وقد حصلت على هذه المعلومة التي فاجأتهم من قريبي وسميّي الذي كان يعمل سائقاً لدى كبير الأطباء في مستشفى المدينة، هذا الطبيب الذي سيعطي كلاً منّا تاريخ ميلاده الحقيقي!

لم يحتمل آباؤنا السفر في السيّارة التي كانت تتقافز بسرعة من هاوية إلى أخرى ومن حجر إلى حجر، ولذا تقيّأوا، وخصوصاً حزام الذي كان يلعن المدرسة كلّ مرّة تضطرب فيها السيارة.

المسافرون الذين لا يعرفون أحداً في المدينة، ينزلون عادة في بيوت خاصّة تديرها نساء أرامل أو مطلّقات. أمّا نحن فقد ذهبنا كلّنا إلى بيت قريبنا «مدير المدرسة سابقاً». هذا الرجل الذي افتتح المدرسة في القرية متصوّراً أنّ في إمكانه أن يلحق بناته بأحد الفصول، وهذا ما فعله. وقد حاول حثّ بعض الآباء على أن يفعلوا مثله ولكن بدون جدوى. وعندما أدرك استحالة هذه العملية، وأن لا مكان لبناته في مدرسة بنين وأنّ حُبّه للقرية مهما كان حقيقياً وعميقاً إلاّ أنّه لا يبرّر أن يحرم بناته فرصتهم في التعلّم والمستقبل. ولم يكن يومها من مدارس للبنات إلاّ في المدينة، ولهذا قرّر العودة إلى حيث كان. استضافنا وعلى رأسنا حزام الذي لم يغفر له أبداً أنّه حاول تدريس بناته مع الأولاد، ولا كونه هو الذي افتتح المدرسة وفتح أمام القرية أبواب العالم التي تسرّب منها كلّ شيء إلى القرية وحزامها العجيب.

أقمنا جميعاً في بيته أسبوعاً لم نشعر خلاله إلاّ أنّنا في بيتنا. وكان من الممكن أن نعود إلى القرية يوم الثلاثاء، اليوم الذي تعود فيه السيّارة نفسها إلى هناك. إلاّ أنّ حزام كان سبباً في هذا التمديد لأنّه لم يكن لديه بطاقة هويّة. وبطاقة الأب شرط أساسي لحصول الابن على تاريخ ميلاد وبطاقة هويّة، ولأنّ قريبنا كان يعرف مسؤوليته عن كلّ هذه التغيّرات والتحوّلات، فقد بذل ما في وسعه لكي يحصل حزام على بطاقته.

في البداية، عندما وصلنا لأوّل مرة إلى المستشفى، رأينا ـ

كما أخبرت زملائي ـ نساءً ببنطلونات وطبيباً يتكلّم العربية بصعوبة. وبدا حزام كما لو كان يرى مخلوقات من خارج الأرض، ولذا ذهب يصلّي لوحده في غير وقت الصلاة ثمّ أعقبها بحديث عن نهاية العالم والحكومة. وكلّما مرّت من جانبه ممّرضة بصق على أرض المستشفى. إحداهنّ لم تحتمل هذا السلوك فأخذته من ذراعه وأخرجته من المبنى، وانقاد لها كما لو كان طفلاً، هو الذي لم تقترب منه امرأة أبداً في القرية.

ـ أكانت دافئةً يدُ الممرّضة؟! قلت له: وهل تعلم بأنّ هؤلاء الممرّضات الجميلات سيخلعن ملابسنا كلّية وربّما يلمسن بعض أعضائنا للبحث عن تاريخ ميلاد كلّ منّا.

ـ سيغتصبنكم؟ أهذا ما تودّ أن تقوله؟ تساءل حزام وهو يطردني ويوصيني بأن أقول لابنه بأنّه لو تركهنّ يلمسنه، فلن يعود حزام أباه مطلقاً، وتندّم لأنّه أسمى ابنه على اسمي.

خرج ابنه متعباً بعد الفحوص الطبيّة ورهبتها، خلع أبوه ملابسه أمام الجميع. ولّما تأكّد من سلامته، أخذ يبكي وابنه بين ذراعيه. وعندما رآه أبي خرج من دون أن يلبس كلّ ملابسه ليؤاسيه، قال له أبي: هل تعرف أنّ إحدى الممرّضات أحبّتك يا حزام وحلَفتْ لي بأنّك تشبه أباها؟ وخصوصاً من خلال اللّحية، وتطلب منك أن تخلع حزامك وسكّينك لكي تتمكّن من فحصك ثمّ علاجك إذا لزم الأمر.

قبض حزام بيده على سكّينه كما لو كان يتأهّب للدفاع عن نفسه:

ـ قل لها بأنّي لست في المدرسة، وأنّي متزوج، ولن أتزوّج إطلاقاً من نصرانيّة.

ـ ليست نصرانية. إنّها مسلمة من أصل باكستاني، والباكستان بلد مسلم ولحية كل منهم أكثر طولاً وكثافة من لحيتك.

ـ هل تعتقد أنّها ستوافق على الإقامة معي في القرية؟ ثم هل أنّ زوجتي ستوافق هي بدورها على هذا الزواج؟

ـ لا. إنّها تعرض عليك أن تأتي لتعيش معها هنا، وبعد ذلك تسافران إلى الباكستان.

ـ لا يا أخي. ساعدني في العودة سريعاً إلى القرية. لقد بدأ الموت يقترب.

استمرّ أبي في مداعبة حزام والسخرية منه:

ـ وجدتك الممرّضة طيّعاً وهادئاً كطفل، وربما أكثر طواعية من طفل، وهي تقول إنّك الرجل الذي تبحث عنه والذي تحلم به زوجاً. ولكن إذا كنت لا ترغب في هذا العرض فما عليك إلاّ أن تُصرِّح لها بذلك، ولكن إيّاك. فلديهنّ القدرة هنا على أن يبقينك معهنّ ولو بالقوّة.

في هذه اللحظة. خرجت الممرّضة وأقبلت على حزام لكي تعتذر منه برفقة جندي يساعدها في الترجمة، رأينا حزام في حالة رعب لا مثيل لها في حياته. جمع طاقاته وقواه وقفز دفعه واحدة فوق جدار المستشفى الذي يطلّ على مقبرة. وجدناه بعدها في المسجد المجاور لبيت قريبنا حيث نقيم. وعندما رآنا فرح. وتوسّل ألاّ نخبر أحداً في القرية بهذه الحادثة، وخصوصاً النساء.

الأسبوع الذي أمضيناه في المدينة، كان أتعس أسبوع في حياة حزام. كان يُفضّل الموت على أن يقيم في بيت فيه دورة مياه. ولم يكن يحلم إلاّ بالعودة إلى قريته وبيته النظيف. كنّا نعرف أن الذي كان يشغله حتّى عن النوم، هو حقوله وثوره وماشيته. كان يخشى أن تستيقظ زوجته متأخّرة، أو أن يستغلّ الرجال غيابه ونومها في السطو على بعض مزارعه أو الاعتداء على مراعيه وماشيته.

في بيت قريبنا استمتعنا بأكل الأرزّ في وجبتَي الغداء والعشاء. أمّه التي كانت في عمر حزام لم تكن تأكل إلاّ الخبز، شريطة أن يكون على طريقة القرية. تأخذ هي وحزام زاوية من المجلس يستعيدان معاً حكايات الماضي، وهما يأكلان الخبز مصحوباً بالسمن والعسل، وبينما هما على هذه الحالة، كان حزام الذي يحتقر الأرزّ، يختلس لحظة من هذه الحميميّة ليُحذّرنا قائلاً: «الأرزّ ينفخ البطون والمؤخّرات. وإذا كان مضافاً إليه شيء من معجون الطماطم فـ. . . !».

كانت هذه الأمّ أوّل إنسان من القرية يحمل نظّارات، وقد سألها حزام ما إذا كانت اشترتها من مكة المكرمة.

ـ لا. لقد عولجت هنا.

ـ أسأل عن النظّارات.

ـ والنظّارات أيضاً.

ـ من أيّ القبائل هذا الطبيب؟

هنا يتدخّل القريب:

ـ الأطبّاء ناس مثلنا، تعلّموا الطبّ في مدارس عليا تسمّى الكليّات، وقريباً إن شاء الله، سترى من بين هؤلاء الذين يأكلون الأرزّ أطبّاء يستطيعون معالجتنا.

ـ إن شاء الله. لكن الله وحده هو الذي يشفي من كلّ شيء. قالها حزام الذي أسفرت رحلته عن فشل ذريع. لأنّ ابنه وأنا أيضاً لم نكن بلغنا السنّ التي تسمح بحيازة بطاقة هويّة. وبالرغم من كل المحاولات التي بُذلت إلاّ أنّ الطبيب رفض. لأنّنا لم نبلغ الثامنة عشرة بعد. حتى وساطة السائق لم تفلح. وأذكر أنّ أبي يومها بذل المستحيل إلى حد أنّه كذب على الطبيب وقال ما لم أسمعه من قبل ليقنع الطبيب بأنّي أكبر من السنّ التي وضعها. وأمام إلحاحهم واستجدائهم الذي تصغي إليه حتى الصخور، زادنا الطبيب بعض السنوات مّجاناً لكنه لم يوصلنا إلى الحدّ الذي كانوا

يحلمون به ويُرضي مدير المدرسة في الوقت ذاته. وما إن وصلنا إلى إدارة البطاقات والجوازات حتى بدأ الجنديّ المسؤول البحث في الملفّات. وعندما قرأ ملفّي نظر إلى أبي بعنف وقال:

- أنت مجرّد ثور، ولا ينقصك إلاّ القرنان والذيل.

- الله يهديك يا ولدي، قال له أبي. لقد بذلنا كلّ شيء، تصوّر. حتى قريبي الّذي يعمل سائقاً لكبير الأطبّاء لم يستطع أن يفعل شيئاً. لأنّ الطبيب - أكرمك الله - لا يحترم رجال القبائل.

- إهدأ. إهدأ، قال الجنديّ، لقد دفعتم الطبيب كما يبدو إلى ارتكاب جريمة.

- قلت لك إنّه لا يحترم رجال القبائل.

- لا تستأهلون أيّ احترام!

مدّ الآباء الآخرون أيديهم لسكاكينهم وهكذا فعل بدوره أبي.

- اسمعوا هداكم الله. أنا من قبيلتكم - لكنّ الله منحني المعرفة، والدنيا تغيّرت - قالها الجنديّ ليرفعوا أيديهم عن أسلحتهم. وأضاف:

- من مصلحتنا في هذا الزمن أن يحصل الأولاد على أقلّ قدر من السنين، ومن الأفضل لكلّ منهم أن يحصل على تاريخ

ميلاد يقلّ بخمس سنوات عن عمره الحقيقي. لكي يتسنّى لهم العمل فترة أطول بعد التخرّج مما يؤجّل يوم التقاعد.

اقترب منه حزام ومعه ابنه وقبّل لحية الجنديّ قائلاً:

ـ أنت ولدي وأنا أبوك، وهذا ـ مشيراً إلى ولده ـ أخوك الصغير ـ والآخرون إخوانك أيضاً، لقد ضعنا في هذه المدينة، وعشنا مشرّدين بلا مأوى ولا أكل ولا شُرب ولا أخبار من القرية.

واستمرّ حزام في سرد مأساته التي جعلت قلب الجندي يلين وينهي إجراءاتنا، حيث حصل بعضنا على بطاقات هويّة والآخرون مثلي على شهادات ميلاد مغلوطة.

بعد أسبوع من عودتنا إلى القرية، جاءنا مُطوِّع (رجل دين) غريب على جهاتنا، ومّما حمله لنا حديث عن الرسول ﷺ يدعو إلى الفصل بين الجنسين ـ «وفرّقوا بينهم في المضاجع» يومها. على ما أذكر لا أحد فهم كلمة «مضاجع» ـ ففسّرها إلى أن فهموها. وكنّا ننام معاً أمّي وأختي/ذاكرتي وأنا وأبي ليس بعيداً منّا في الغرفة ذاتها، على علوّ حوالى ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر. هذه كانت وسيلتنا الوحيدة لمقاومة البرد القارس. وعندما سمع أبي حديث المطوِّع نبّهني إلى أنّي بلغت السنّ ـ سنّ المضاجع.

ـ لكنّهما أمّي وأختي.

ـ تستطيع أن تنام بجانبي.

ـ وحزام. أعليه أن يترك مضاجع زوجته؟

ـ يبدو أنّك لم تفهم. نحن متزوّجون.

أمّا أمّي فقد كانت تظلّ بجانبي إلى أن أنام، ثم تنتقل إلى جانب أختي، وكأنّها كانت تود أن ترضي الله سبحانه. وترضي ابنها. في حين ظلت أختي تستمتع بأمّها في الليل والنهار، وكانت تؤاسيني في حزني قائلة: «هذه إرادة الله التي فرّقتنا»، وكنت أتعالى على حزني وأجيبها بأنّي أصبحت رجلاً، وما افتقدته حقيقة هو رائحة أمّي، وشاعريّة حضورها، وقد فهمتْ أمّي هذا الحرمان فكافأتني بأن بدأنا نؤجّل الذهاب إلى غرفة النوم. وراحت تجلس معي بجانب النار التي لا تنطفئ غالباً. تروي بعض قصص الحبّ والغرام وأساطير القرية، وكذلك بعض القصائد التي أحفظها بسرعة تثير دهشة أمّي التي ظلّت زمناً طويلاً تملؤني ناراً وشعراً.

قـوس قـزح

ذات يوم، اعترفت لأمّي بأنّي أحبّ امرأة سواها.

«تعرفين يا أمّي كم أحبّ الشعر، وتعرفين أنّي أحبّك أكثر من الشعر، لكنّ في هذه الفتاة شيئاً ليس فيك ولا في الشعر. أنا على يقين من أنّها هي «قوس قزح».

كان حزام قد باح لي ببعض أسرار القرية:

هنا في قريتنا ولدت أوّل قصيدة، نبتة ذات ألوان كثيرة لا تحصى، وكلّ لون له عطور وروائح لا تعدّ، وكلّ عطر له من الأرواح ما يملأ الكون.

أجدادنا كانوا أرضاً خصبة وعذاء، والكلمات تخرج من أفواههم على هيئة أرواح عطرة. كان من عاداتهم البقاء شبه عراة كالأشجار، خاصّة عندما يصعد المطر. وفي زمن لا يذكره أحد، بدأت المياه في الصعود فجأة. حاصرهم المطر طويلاً في بيوتهم.

في تلك الفترة حمل الكثير من نساء القرية، وهو حدث لم نجد له تفسيراً بعد. وما أدهش القرية هو أنّ هذا الحمل وحّد هؤلاء النسوة جميعهن، فحين أنجبن لم تذهب أيّ منهنّ إلى الحقول، مّما أغضب الرجال بالتأكيد، لكن إجابتهن كانت حاسمة:

«لكلٍّ نباتُه».

ولأوّل مرة، اكتشف الرجال حالة الضعف هذه لدى النساء، فأخذوا يحملون لهنّ الماء، ولكن بكثير من المنّة والاحتقار والشعور بالفوقيّة.

كان في إمكان النساء أن ينسين هذا الامتهان لولا أنّ نتائجه كانت مرعبة. فلقد شكّلت تلك اللحظة بالنسبة لهنّ نهاية الحياة. وأخذن يصرخن: «لا ماء في الماء».

لأنّ الماء الذي حمله الرجال لم يعد يروي عطشهنّ، ولا عطش النباتات الشعرية التي أخذت تغادر القرية في اتّجاه السماء، حيث تتحوّل إلى سحب وبروق وأعاصير، كانت بداية معركة لم يشهد أجدادنا مثلها من قبل، وهي المرّة الأولى التي يسقط فيها عليهم المطر من حجارة ومن صخور. مطر قاتل. وأمام الموت أخذ أجدادنا في الغناء بما تبقّى لهم من حياة.

ولمواجهة هذه الكارثة، تدخّلت الشمس لإنقاذ القرية. احتضنتها في يدها اليسرى، وفي اليمنى احتضنت كل النباتات

لتحيلها إلى صورة أجمل امرأة في القرية، تلك التي ما زلنا نسمّيها إلى اليوم «قوس قزح».

منذ تلك اللحظة فقدَ الماء خاصيّته الأولى التي تتمثّل في إعطاء الأشياء ألوانها الحقيقيّة، وأصبحت الأشياء هي التي تمنح الماء لونها. إلى أن فقد الماء لونه أيضاً.

قرّرت النساء الذهاب للبحث عن الماء أملاً في إنقاذ كينونته، ولإنجاز هذه المهمّة الشاقة انقسمن إلى فرقتين، فرقة تجلب الماء والأخرى ترضع الأطفال إلا أنّ جهودهن لم تنجح في إنقاذ الماء. لكنهنّ منحن الحليب طاقة لم يكنّ يعرفنها من قبل وهي أنّ أطفال القرية أصبحوا أخوات وإخوة. هكذا تحوّلت القرية إلى أسرة واحدة وتحوّل الماء القديم، ماء أجدادنا إلى ضوء. ومن هنا حافظ على خاصيّته الأساسيّة المتمثّلة في إعطاء الأشياء ألوانها.

في قريتنا فقط. ما زال في إمكاننا أن نرى الماء ينساب في حنجرة أيّ قوس قزح.

ولكنّ حزام روى الحكاية بطريقة أخرى. قال إنّ أوّل قصة حبّ بين رجل وامرأة وقعت في القرية ذاتها، وقد استعذب الناس الحب وعشقوه إلى أن تسامى بعضهم واختفى إلى الأبد. وكادوا أن يقتلوا الحبّ ويقضوا عليه، أمّا الذين بقوا على قيد الحياة فهم أولئك الذين لم يعرفوا الحبّ. ولإنقاذه وإنقاذ الإنسانيّة تدخّلت الشمس وأحالت الحبّ إلى قوس قزح.

ـ لعلّك الآن تفهم لماذا ما زلتُ حيًّا يا ولدي. ثمّ أضاف حزام: ما رويته لك ليس إلاّ ثرثرة. وإن كنتَ فعلاً تريد معرفة رأيي الحقيقي في هذا الموضوع، فهو أنّ زراعة الأرض هي الّتي تمنح النساء والرجال أشكالهم وألوانهم، وتمنح الأشياء جمالها وبهاءها.

ـ والماء؟

ـ الماء موجود دائماً، يكفي أن نحفر الأرض والصخر لنجده، والجفاف لا يصيب إلاّ البلاد التي يغالي أهلها في النوم.

أمّا أُمّي فكانت تؤكّد لي بأنّ الشعر وحده أخذ دور الماء ووظيفته، فهو الذي يمنح الكائنات والأشياء لونها. وتضيف بأنّ الماء حافظ على طاقة شعريّة لا يدركها إلاّ الشعراء الحقيقيّون. خاصّة ذلك الماء الذي في عيوننا والذي يحمل في داخله حقيقتنا بألوانها المتعدّدة.

وذات يوم قالت لي «قوس قزحي» إنّها أبصرت خيالي في ماء البئر. شربت منه إلى أن أيقنت بأنّها شربتني بالكامل. كان هذا الإعلان العاشق بداية جنوني الفعلي بحبّها.

كشفت سرّي لجارتنا العجوز، فنصحتني أن أجمع سبع شعرات من قوس قزحي وسبعة أحجار صغيرة مشت عليها. كما طلبت منّي أن أضع هذا كلّه مع آية من القرآن الكريم في ثقب في مدخل بيت حبيبتي.

عثرتْ عليّ أمّي وأنا أجمع الحصى.

ـ من الذي أوصاك بفعل هذا؟ أهي العجوز؟! أنت تعرف يا ولدي أنها لم تحب أبداً، وأنها لم تتزوّج قطّ بالرغم من أنها بذلت كلّ ما تستطيع. أعرف أنّك عاشق. بيد أنّك ما زلت صغيراً. وللتوّ أرسلتَ آخر أسنانك الحليبية إلى عين الشمس، وما زال أمامك أمد طويل للعذاب والألم.

في القرية، كنّا عادة نحتفظ بأسناننا المتساقطة ثمّ نقذفها في اتجاه عين الشمس لتمنحنا مكانها أسناناً حقيقيّة تدوم ما دام الضوء.

أمّا أبي الذي اكتشف معاناتي وأحاسيسي وكان يريد أن يعلّمني فنون السباحة كما أتقنها فقد قرّر أن نصليّ في المسجد المجاور لبيت معشوقتي بدلاً من الصلاة في المسجد المجاور لبيتنا. لم أكن لأصدّق بأنّ لنا الحقّ في تغيير المسجد. ومنذ تلك اللحظة تبنّيت المسجد الجديد وصرت أصليّ فيه الفروض الخمسة جميعها. صلاة تشبه صلاة الكبار وربّما أكثر خشوعاً وصِدقاً، ولذا تبنّاني أهله أيضاً إلى أن اكتشفوا أنّي بالغت. وبالفعل كنتُ أبالغ وما زلت عندما أحبّ. وقد ذهب أبو قوس قزحي إلى أهلي ليحدّثهم عن «إسلامي» بقلق عميق وأكّد لهم بأنّي مصاب فعلاً في عقلي وأنّ عليهم معالجتي والاهتمام بحالتي. وكان يكفيني من جهتي أن أسمع ما قاله عنّي لكي أتوقّف عن الذهاب إلى مسجدهم.

اختفيت عن حبيبتي أسبوعين، ولكي أظهر مجدّداً أمامها، كان عليّ أن أبدي بعض تميّزي وجدارتي التي لم أكن قد كشفتها لها ولأهلها. وبالفعل فقد كنّا نملك «أتاناً» حمارة بيضاء جميلة وأصيلة، تشبه سيارة فيراري اليوم، أو درّاجة ناريّة من ذوات الطاقة الهائلة. وكنت قد اكتشفت لوحدي كيف يمكن أن أضاعف من سرعة هذه «الحمارة» إلى الحدّ الذي تسابق فيه الريح. وقبل غروب الشمس، في تلك اللحظة التي نسمّيها شمس الموتى، أيْ قبل أن تسقط في البحر وتشربه ثمّ تغيب، كنت على ظهر «حمارتي» عائداً من المزرعة إلى القرية. في مدخل القرية رأيت قوس قزحي وأمّها على سطح منزلهم، وأدركت أنّها رأتني، فاستخدمت رأس العصا المدبب والحادّ ووخزت به مؤخّرة «حمارتي» فطارت كالريح استعراضاً أمام معشوقتي، وحتّى ترى ما لم تعرفه من قبل من مهارة وذكاء لدى محبوبها. وفجأة، وفي قمّة النشوة والزهو، اعترض طريقنا ثعبان ملعون، فجنّت حمارتي ولم أتمالك نفسي على ظهرها. سقطت بين حوافرها أمام أهل القرية وأمام معشوقتي خصوصاً. وعادت «الحمارة» وحدها إلى البيت. وأدركت بأني سقطت مجدّداً أمامها، فاختفيت ثانية أيّاماً عديدة.

أمّي التي تابعت عن قرب كلّ هذه المغامرات، نصحتني بالغناء. الشيء الوحيد الذي كانت ترى أنّي أجيده تماماً ولا يمكن أن أسقط فيه. أمّا حزام الذي كان يحبّني كما يحبّ ابنه، فلم يكفّ عن نصحي ويقول: «أعرف أنّك تجيد الغناء لقوس قزح،

لكن لكي تصل، يجب أن تكون قادراً على رؤية الشمس في عزّ الليل:

«الشمس والقمر كانا أوّل زوجين على وجه الأرض، على الأقلّ هذا ما يُحكى لنا، الشمس كانت الزوجة والقمر الرجل. أحبّا بعضهما عميقاً. ولأنّ الحبّ كان هو الضوء الوحيد على وجه الأرض، ولأنّهما استنزفاه فقد تحوّلت الأرض إلى عالم من العَتمة. عتمة لم تحل دون أن يرى كلّ منهما الآخر، ولا أن يريا ما حولهما. وأنجبا عدداً هائلاً من الأطفال ومن كلّ الألوان، لكنّهم يولدون بأعين مُغمضة. ولإنقاذ أطفالهما والأرض معاً، قرّرا أن يعيدا إلى الأرض جزءاً من النور. أراد الأب أن يقدّم هذه التضحية. لكنّ الأمّ ذكّرته بأنّها هي التي استنزفت أغلبيّة النور وأنّ من الأفضل أن يتقاسما هذه المهمّة. هكذا يا ولدي ترى أنّ هناك ليلاً ونهاراً. كانت أمّنا ترضع آخر أطفالها. ومنذ أن أصبحت هي الشمس استمرّت في إرضاع ابنها وهذا ما يبرر وجود قريتنا هنا قريباً من الشمس. وهكذا ظلّت على هذه الحالة. أحياناً تختفي فيعتقد الناس أنّ كارثة وقعت. في حين أنّها تهبط بيننا كأمّ حقيقيّة، ترضع طفلاً ـ وتفضّله صبياً وأحياناً نادرة بنتاً وهؤلاء هم الذين يغنّون الضوء وللضوء.

نبّهتُ حزام إلى أنّ بعضهم يقول بأنّ القمر كان هو المرأة.

ـ هذه أيضاً أمّك ـ مرجعيتك ـ التي قالت لك هذا؟ أنت ولد أمّك فعلاً. وعليك أن تسكت. أمّا أنا فإنّي على يقين بأنّ في

كل امرأة شمساً. انظر كم هنّ مضيئات. ولهذا أتجنبهن. لأنّ أي شمس لا بدّ من أن تحرق.

- ولكن كيف يمكن أن أرى الشمس في عزّ الليل إذا كانت تقضي وقتها في امتصاص البحر؟

- الشمس تضيء وتحترق طوال النهار، وفي الليل عندما تختفي وراء هذه الجبال، فإنّها إنّما تشرب البحر، ثم تتحوّل إلى امرأة على هيئة نجمة. الذين رأوها يؤكدون بأنّها أجمل نجمة، تجتاز السماء من المغرب إلى المشرق. وإذا استطعت أن ترى هذه النجمة فقوس قزح مُلكك وسرُّ حياتك وبقائك.

كنت أعرف أنّي لم أعد في سنّ الرضاع، وأنّي لن أكون شاعراً حقيقيًا لذا قرّرتُ أن أجرّب آخر حظوظي. رؤية الشمس في منتصف الليل. لجأتُ إلى جارتنا العجوز التي لا تنام إلاّ نادراً والتي لا تَفتأ تتكلّم بصوت عالٍ وكانت تعرف مسبّة كلّ شخص في القرية، إلى الحدّ الذي كنا نعتقد فيه، أنا وأختي/ذاكرتي، بأنّ هذه العجوز هي التي اخترعت كل المسبّات والشتائم. كانت تضرط كلما حاولت أن تنهض، ممّا يثير فينا ضحكاً مجنوناً وعالياً. كانت تسمع ضحكنا وتشتمنا باستمرار وتسمّينا ذُبّان البراز، وتهدّدنا بالقبض علينا والانتقام منا.

وعندما لجأتُ إليها وكشفت لها سرّي، رافقتني ليليًا لفترة طويلة، لا لرؤية هذه النجمة الحلم. وإنّما لتعليمي مسبّات كل

فرد في القرية، انتصارات بعضهم في مغامراته، وانكسارات البعض الآخر. أسرار الجميع - الأسرار الحقيقية والخاطئة. علّمتني الوجه الآخر الخفيّ للقرية. ولم تستثن أحداً إلاّ أمّي لأنّها وحدها لم تكن تشتم أو تسبّ أحداً ولأنّها كانت تعطي هذه العجوز ليليًا بعض اللّبن والسمن، بعلم أبي أو بدون علمه.

في النهاية نسيت أنّي انتظر الشمس، لكنّي بفضل هذه العجوز، اكتشفت التاريخ الخفيّ للقرية وبدأت أنظر إلى الناس من حولي بطريقة مغايرة وكلّ مرّة أرى أحدهم، أضحك لوحدي، لكن بدون أن أجرؤ على أن أكاشفه بحقيقته لسبب وحيد وهو أنّ مسبّاتهم مسبَّة لي شخصياً، لأنّ القرية كانت كإنسان واحد. حتى البيوت المتداخلة على هيئة أبناء العمّ، لكل بيت مدخلان، أحدهما على الأرض والآخر على السطح، بحيث كان في إمكاننا أن ندخل كلّ بيوت القرية من سطوحها.

بعد الذي حدث لي في المسجد، ومع «الحمارة»، ثمّ ضحكي غير المبرّر في نظرهم، أدركوا جميعاً في القرية أنّي في حالة جنون. وأنّي ورثت هذا الجنون من ابن عمّي الذي لم تنس القرية ولن تنسى أبداً ما حدث يوم سبت مشؤوم. ويوم السبت هو يوم السوق الذي تلتقي فيه كلّ القرى في ساحة بعيدة جداً عن قريتنا. ويحضره كل الرجال بلا استثناء. في ذلك اليوم، خلع ابن عمّي ملابسه وقفز من الطابق الرابع في بيتهم. كانت الحقول المحيطة بالقرية مغمورة بالمياه، ومع هذا تجاوزها ابن عمّي من دون

أن تتبلّل قدماه كما لو كان يطير. وحدها أمّي أنقذت شرف العائلة والقبيلة حين استطاعت أن تقبض عليه وساعدتها في إعادته إلى بيته إحدى فتيات القرية الجميلات. وعندما عاد الرجال من السوق، رفعوا علماً أبيض تكريماً لأمّي ولهذه الفتاة، ثم تنكّرت العجوز لكل ما روت لي. وقاطعتني القرية بمجملها ما عدا «قوس قزحي» التي قلت لها:

ـ أتمنّى أن تظلّي صغيرة مدى الحياة لكي أتمكّن من رؤيتك ـ العين بالعين ـ ما دمت حيًّا.

ـ ذلك لا يمكنني لأنّنا نحن أقواس قزح، لا يحقّ لنا أن نغامر إلاّ مرة واحدة. فإذا أحببتك وأنت لست شاعراً حقيقيًّا فإنّ هذا يعني موتي.

نادراً ما نظرت إلى امرأة ـ العين في العين ـ بالرغم من أن أبي كان يقول إنه من الأفضل أن ترى المرأة على أن تنظر إليها. وهو ما لم أجرؤ عليه أبداً.

لجأتُ إلى حزام، كالعادة حين تغمرني أحزاني. اتّهم أمّي والشعر والمدرسة ثمّ بكينا سويّة.

ـ لم يسبق أن رأيتك تبتسم يا أبتي حزام.

ـ لأنّ فمي معبّأ كما ترى باستمرار، والحقيقة أنّ هذا ليس خياراً، فلو أنّي ابتسمت كما أشاء، فقد لا أتمكّن من العمل

مطلقاً، ومع هذا فإنّي ابتسم مرّتين في السنة، وتحديداً في موسمي الحصاد.

وعليك أن تعرف بأنّ عدد الابتسامات التي تبقّت لي إلى آخر يوم في حياتي لا يسمح لي بالتبذير أبداً.

ـ هل لأنّك حدّدت لنفسك عدداً من الابتسامات لا يمكن مطلقاً تجاوزه؟

ـ لا. إن المسألة أعمق من ذلك. لقد مُنحتُ كميّة من الابتسامات لا أملك غيرها في حياتي، وذلك منذ أن ولدت. ولو أنّ كلاً منّا احترم العادات المقدّسة في القرية، لما تجاوز أحد تلك الكميّة التي تكفي الإنسان في حياته كلّها.

ـ أيّ عادات مقدّسة؟

ـ منذ أن قُتِل يَعْلى.

ـ لكن يَعْلى هو جدّنا.

ـ أعني يعلى آخر. إنّه ولد يحمل اسم جدّنا القديم وقد تمّ قتله بسبب ابتسامة، ذلك أنّه في القديم، حدثت مَقتلةٌ بين أسرتين، وفي المساء ذهب المعتدون ليروا بأعينهم وليسمعوا بآذانهم أحزان الأسرة المعتدى عليها وأنينها. وكانت مفاجأتهم صاعقة إذ لم يسمعوا إلاّ الضحكات العالية، كما لو أنّ هذه الأسرة لم تفقد أحداً. عادوا وسألوا عجوزاً عن سرّ هذه الأسرة. عجوزاً أخبث

من جارتكم، قالت لهم: لا شيء يطفئ الضحك في بيت فيه طفل. وعندها ذهب المجرمون، ليقتلوا ضحك هذه العائلة إلى يوم الدين، ومن يومها، اتّخذت القرية قراراً بتحديد عدد الابتسامات لكلّ فرد منها، وما زلت أنا الوحيد الذي يعرف هذه العادة ويحترمها.

روت لي أمّي هذه الحكاية مع بعض التدقيق. قالت:

ـ بالتأكيد، لقد مُنح كلّ منّا عدداً من الابتسامات، ولكن لا أحد يعرف نصيبه بالضبط اليوم. وقديماً، وعندما كان أهل القرية يعرفون العدد تحديداً، اكتشفوا أنّه عندما يحتفظ أحدهم بابتسامته الأخيرة لإحدى الأشجار، فإنّ هذه تتحوّل إلى شجرة مثمرة. وهذا هو أصل الأشجار المثمرة يا ولدي، وفي تفاصيل اكتشافهم أنّ آخر ابتسامة لامرأة تعطي ثمراً حلواً. وابتسامة الرجل تعطي ثمراً حامضاً نوعاً ما، أمّا الأطفال، فإنّ ابتساماتهم الأخيرة هي الأصل في الخضار والورود وكل النباتات العطرية والطبية وما يستخرج منه البهارات، أمّا بالنسبة لحزام، فأنا متأكّدة من أنّه لا يعرف العدد المخصّص لكل فرد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّه لم يتبقّ له أيّ ابتسامة واحدة منذ زمن طويل.

في ذلك اليوم، وبعد أن بكينا معاً، أخذ المطر يصعد، وكان حزام يدهن شعري بقليل من الزبدة. وضعت رأسي على فخذه ونمت، بينما هو يسمع غناء الحقول التي تستقبل المطر، وهذا أجمل ما يرى في حياته. وعندما استيقظت، رأيت قوس قزح

في أبهى تجلّياته، أدركت أنّي نجوت، وأنّي ليست مجنوناً، وأنّه بمجرد أن أتوقف عن الغناء سأصبح رجلاً.

ومن المعروف عندنا أنّ الطيور تجتاح المزارع بعد المطر. تركت حزام وذهبت سريعاً لحماية الحقل الذي أحبّ. وهناك وجدت صخرتي الملساء الممتدّة كسرير، مبلّلة ودافئة معاً. استلقيت على هذا الدفء ونمت، ورأيت الشمس للمرّة الأولى تغيب في المشرق، وعندما استيقظت، كان الليل يلفّ كلّ شيء حولي، وكنت على ظهر أمّي محمولاً. هي التي نجحت في العثور عليّ، حيث كان أهل القرية قد قضوا وقتاً طويلاً في البحث عن الفتى «المجنون».

قلت فقط لأمّي، بأنّي رأيتُ الشمس تغيب حيث تشرق عادة. وأنّي رأيت قوس قزح.

ـ الحقيقيّ؟

ـ نعم الحقيقيّ.

ـ أعني قوس قزحك؟

ـ لا يا أمّاه.

ـ ولماذا لم تُغنّ كما قلت لك؟

ـ لن أغنّي ثانية، وإلاّ فإنّي لن أصبح رجلاً على الإطلاق.

ـ لا يمكن أن تحقّق ذاتك من دون أن تغنّي.

ـ والجنون؟

ـ إذا كان الغناء يحيل الإنسان إلى مجنون، فإنّ عليك أن تغنّي مدى الحياة، إلاّ إذا كنت تخشى أن يطلق عليك حزام تسمية «المجنون ابن المجنونة»!

ـ أنتِ لستِ مجنونة.

ـ ومع ذلك فإنّي لا أتوقّف أبداً عن الغناء.

اجتمع أهل القرية ليلتها في بيتنا احتفاء بعودتي، ولم يرفعوا علماً أبيض لأمّي، ممّا طمأنني على أنّي لست مجنوناً في نظرهم. رغم أنّي سمعت بعض الجمل اللاذعة، كقول أحدهم بأنّ أمّي أصبحت متخصّصة في استعادة مجانين العائلة. وحدها أختي/ذاكرتي استمرّت تحدّثني كعادتها، فقلت لها اعترافاً وتمجيداً لموقفها: أنتِ فعلاً قوس قزحي.

قرّرت وحدي أن ألعب لعبة أهل القرية، أعني القيام بدور المجنون. وبالفعل رحت أقبّل كل بنات القرية، وآكل في أيّ بيت أختاره، وغالباً ما يكون بيت حبيبتي التي كانت بدورها تعرف اللعبة، وتعرف أنّنا أنقذنا حُبّنا. وأمّي كانت تعرف أنّي أُغنّي، وكذلك حزام الذي أخذني بيدي مرّة وانتزع سكّينه ووضعها أمام عينيّ قائلاً: إيّاك أن تقبّل ابنتي وإلاّ فسأقتلك، وهمس في أذني

قائلاً: أنت مجنون غناء فقط. لك أن تمارس لعبتك، لكن خارج بيتي وعائلتي، هل فهمت؟

ـ مارست جنوني تماماً. وأسمعت كلاً منهم حكايته التي روتها لي العجوز، ولم يعد أحد يجرؤ على مواجهتي.

أمّا في المدرسة فقد ظللت كما أنا ـ طالباً مثالياً. والأوّل غالباً في صفّي. ومن جانبهم استمرّ الأساتذة في تهنئة أبي على إنجازاتي، وكان أبي يعيش جنوني بنوع من الفخر والغيرة أيضاً. أمّا أمّي فقد ظلت تحرّضني على الغناء، والغناء فقط. في حين ظلّ أغلب الناس في القرية على يقين بأنّي مجنون، وقد دفع هؤلاء ثمناً باهظاً ليقينهم، ولم يعش معي متعة الجنون إلاّ قوس قزحي وتلك المرأة التي كانت تتمنّى أن تقبّلني مدى الحياة، في غمرة جنوني، ماتت جارتنا العجوز. وقد تركت وصيّتها لدى حزام وكتبت فيها ما يلي: أوصي بكامل حقولي لذلك الذي انتقم لي، شاعر ومغنّي القرية. وفي اجتماعنا المعهود بعد صلاة الجمعة، قرأ حزام الوصيّة أمام أهل القرية، قرأها بمرارة وحزن لأنّه كان يحلم أن يشتري حقول هذه العجوز قبل موتها، وبعد أن فرغ من القراءة وجّه حديثه لي قائلاً:

ـ أخيراً ربحت بغنائك ما لم أستطع أن أشتريه بأموالي.

احتضنتني القرية مجدّداً. لكنّي كنت مضطراً لمغادرتها، وهذا هو جنوني الحقيقي. غادرت «قوس قزحي» لتحقيق حلم أبي وحلم

أساتذتي المتمثّل في أن أصبح صحفياً. كان بعض الشباب قد غادروا القرية إلى العاصمة، وكانوا جميعاً يجدون عملاً في قسم الشرطة الخاصّ بحراسة المستشفى المركزي. وذلك بفضل أحد أبناء القرية الذي كان يدير هذا المركز بذكاء وبراعة. ومن خلال مركزه هذا استطاع التعرف على كبار شخصيّات البلد والتقرّب منهم. وأخذوا في المدينة يعاملونه كما لو كان شيخ القرية. وقد أصبح هذا المركز حكراً على شباب القرية وبعض المحظوظين من القرى المجاورة. يأكلون ويشربون ويقيمون مجّاناً، وبالتالي فإنّهم لا يصرفون أيّ مبلغ من رواتبهم.

أمّا حزام وأهل القرية فلم يكونوا سمعوا في حياتهم بهذه المفردات، المستشفى، العاصمة، الشرطة، وخصوصاً الراتب.

تحوّل المستشفى إلى حلم لكلّ أهل القرية، أصبح بالنسبة لهم كالجنّة تقريباً «أكل وشرب وسكن» من دون أن يخسر أيّ منهم ريالاً واحداً. وبالإضافة إلى ما سبق يتقاضون رواتب عالية. يخزنونها كلّها ليعودوا بها إلى القرية. وهذا ما دفع بكثير من الآباء إلى إرسال أبنائهم إلى ذلك المستشفى الذي تحوّل إلى فندق مجّاني. لكنّ الحظ لم يحالفهم جميعاً، إذ كان بعضهم يعود إلى القرية خائباً.

ذات يوم، بعد الظهر، عاد رئيس المركز إلى القرية. وتحت جاذبيّة العاصمة والراتب جاءت القرية كلّها لاستقباله، لكنّ أحداً لم يجرؤ على الاقتراب من السيّارة التي كانت محمّلة بالأكياس والحقائب. ما عدا عائلته وأقرباءه، الذين اهتمّوا بتفريغ الحمولة.

وقد رافقناه كلّنا إلى بيته بعد أن أطلق الرجال الرصاص في استقباله وحيّوه بنشيد العائد.

هذا الرجل الذي أخذنا نسمّيه من لحظتها ـ العاصمة ـ أعطانا أخباره كما تقضي عادة القرية. إذ إنّه حتى لو لم يغب الواحد إلاّ نصف يوم فإنّ عليه أن يحدّثهم عن رحلته ومشاهداته ومرئياته. وما أكل خلالها وما شرب.

بعد أن أعطانا أخباره مختصرة منذ سفره إلى عودته، اتّجه بالحديث إلى الآباء الذين يعمل أولادهم تحت إمرته ليقول لهم بأن أولادهم، من رجال الشرطة، أرسلوا لهم معه مبالغ كبيرة وهدايا، ممّا أثار بعض الغيرة لدى الآباء الآخرين.

نهض «العاصمة»، كان له بطن منتفخ بخلافنا، ويمشي مفرّقاً بين قدميه من هول السُمنة. لاحظنا أنّ قدميه كانتا مخفيّتين بأوّل جوارب عرفتها القرية. ولم يكن يحمل حزاماً، وبدا حزام أكثرنا امتعاضاً لما نرى، ولذا اكتفى بالنظر إلى السقف، إعراباً عن تأفّفه، وأحياناً كان ينظر إلى سكّينه.

حمل إخوة «العاصمة» كثيراً من الأكياس والحقائب. وضعوها أمامنا في المجلس. كانت معبّأة بالملابس، هدايا لكلّ فرد في القرية. ارتديناها مباشرة فوق ملابسنا القديمة، كما لو أنّنا نضع العاصمة فوق القرية، وظللنا هكذا يومين متتالين من دون أن نخلع أيّا منهما. يومان لن تنساهما القرية. ثم خلعناها حفاظاً

عليها لعيد رمضان الذي كان على الأبواب. في مساء اليوم الأوّل عاد الآباء وهم يتحدّثون عن الحكومة، والعاصمة والثروة بينما كان حزام يدعو الله أن يحفظ الملك المؤسّس الذي مات منذ زمن بعيد. ولم يكن حزام يقبل بهذه الحقيقة.

احتفلت أسرة «العاصمة» بابنها كما يجب، وتعرفنا في بيتهم لأوّل مرة على الشاي والقهوة بالهال، وكان قد حمل لأبيه فراشاً وثيراً وغطاءً أكثر بهاءً. وطلب إلى أبيه أن يستلقي على هذا الفراش وسط المجلس أمام الجميع وأن يبعد الشياطين من رأسه بضعة أيام، وأن ينسى الحقول وهمومها، وأن يعيش كما لو كان ملكاً.

في اليوم الثاني من عودته، دعانا هذا المسافر إلى عشاء فخم في بيته، ذبح عدداً كبيراً من الخراف، وقدّمها لنا على صحون كبيرة جلبها من العاصمة. وقد أكل العديد من أهل القرية الأرزّ لأول مرّة. هذه الوجبة الفاخرة كان يسمّيها «كبسة»، وهي المرّة الأولى التي نأكل فيها معاً، الكبار والصغار. في حين كان الكبار يقتسمون اللحوم الجيّدة ويتركون لنا ما تبقى من عظام وزوائد أخرى. وبالفعل، كانت هذه الكبسة ثورة على تقاليد القرية. أكلنا معاً نحن الذكور، وما تبقّى اقتسمه الناس وعاد كل منهم بجزء لزوجته وبناته اللواتي لم يدعين ولا يدعين في مثل هذه المناسبات.

أثناء العشاء، كان المسافر يحدّثنا بلا كلل عن الحياة الحضاريّة في المدينة، ويشعل من وقت إلى آخر سيجارة أمامنا بدون حياء،

في حين لم يكن أحد يدخّن في القرية. وكانوا يقولون «يشرب شْقارة» بدلاً من التدخين. والذين كانوا يومها يشربون الشْقارة هم بعض أهالي تهامة الذين لم يكن لديهم عيب في ذلك. ومع هذا كانوا يشربونها خفية قدر الإمكان، ويشترونها خفية. كانت تموِّلهم بالتنباك جارتنا العجوز التي كانت تزرعه في أحواض على سطح بيتها. يأتون وقت صلاة الجمعة ويشترون منها حاجتهم في الوقت الذي يصلّي فيه الآخرون. أمّا نحن في القرية فإنّ أيّ مدخّن كان يعتبر ناقصاً في أعين الجميع.

فقد المسافر الكثير من احترامنا له عندما رأيناه يدخّن.

لكن الذي أثارنا وأزعجنا أيضاً هو سِنّه الذهبية، وأيقنّا أنّه لم يكن يضحك إلاّ ليرينا هذه السنّ العجيبة.

رائحة بشعة وغريبة فعلاً تحيط ببيت المسافر. إنها أبشع رائحة عرفتها القرية في تاريخها. وأقسم حزام بأنّه لم يسبق أن سدّ أنفه إلاّ أمام هذه الرائحة، رائحة السيجارة.

خرج الرجال بعد العشاء للرقص، وتركوا المسافر مع سجائره وسنّه الذهبية. لم يكن حزام يرقص أبداً. وكنّا متأكّدين أنّه لا يعرف الرقص ولا يجيده، وكان بالفعل يكره الرقص عموماً. ويتحدث عن خطورته ويقول إنه ربما يقتل الرجال غير المتزنين. وتابع: ولكي يرقص الرجل لا بد أن يكون خفيفاً، وخاصّةً في عقله.

أما ذلك الفرح الذي عشناه بعودة المسافر، فقد تحول إلى ريبة وحذر تجاهه وتجاه الحياة الحضاريّة التي يمجّدها، وبدت القرية حزينة وجريحة، وعرفنا فيما بعد أنّ أباه كان قد بكى طويلاً لهذه المأساة.

ذاكـرة المـاء

«هذه القرية شمسٌ وماء، أو شموس وماء».

لم أعد أذكر كيف أوردها حزام، كنت أسمعه عن بعد يقولها لثوره وهما في الطريق لريّ الحقل، كان هذا قبل موسم الحصاد بقليل. وهي السقيا الأخيرة إذن. إلاّ أنّ البئر خانتهما في اللحظات الأخيرة، ما رأيت حزام جافًا وبائساً مثلما كان عليه في ذلك اليوم، خلع ملابسه كلّها وبدا يحثو التراب على جسده الذي يشبه نبتة عرّاها العطش، واتّجه إلى الله متضرّعاً: يا إلهي اسقني. كرّرها ثلاثاً ثم عاد إلى جانب ثوره، وظلّ يهمس في أذنه إلى أن أتى المطرُ من كلّ مكان.

روينا ما حدث لأهل القرية، لكنّهم لا يثقون إلاّ بشهادة الرجال. أجمعوا على تكذيبنا وهم يشيرون إلى رؤوسنا، عرفنا المراد، لقد حان موعد الختان والتخلّص إلى الأبد من هذه القَصّة المعيبة، إذ كانوا يقصون شعْر الصبيان قبل سن الختان بطريقة

توحي بأنهم ما زالوا قاصرين، يُبقون شعيرات في قمة الرأس، يحلقون حولها ما يشبه الطوق ويتركون ما ينسدل على الجبهة والأذنين والرقبة من الخلف.

قال أبي: لن يثق أحد بكلامك ما لم تحلق مجمل شعرك، لن تكون وحدك، «أنت عاشر عشرة بلغتُم سنّ الختان، غداً سنحتفل بكم». حلَق أبي شعري أمام أختي/ذاكرتي التي ظلّت واقفة بدون أن تجرؤ على الغناء.

ليلتها لم ينم أحد في البيت ولا في القرية. وبعد صلاة الفجر ذهب أبي للبحث عن الختّان الذي حضر في غيابه، كنت لوحدي بصحبة أمي وخالي. ختنني الرجل على الطريقة التقليدية دون أيّ احتفال. لأننا كنا ما زلنا صغاراً ويخاف آباؤنا أن نبكي أو أن يُغمى علينا. ولذا قرّروا أن يتمّ الختان بعيداً عن عيون الآخرين وعن كل الاحتفالات التي اعتادوا عليها. ثمّ إنّ المدرسة كانت قد ساهمت في تغيير كثير من تقاليد القرية. ولم يبق إلاّ الأمّهات اللواتي أنجزن على عجل تزيين البيوت وتلوينها كما اعتدن منذ قرون عديدة.

وبينما كنت ألقي قصيدتي ونسبي، وتحت وطأة الألم، لعنت الختّان وأباه لكنّه استمرّ في تقطيع جلدي كما لو أنّه لم يسمع اللعنة. وعندما أنجز مهمّته قبّلني وغادرنا وهو يقول لي: «بعد أن أختفي، في إمكانك أن تبكي، ومن الأفضل ألاّ تبكي إلاّ بعد أن تعود إلى المنزل». وهذا ما فعلت، وفجأة دخل أحد أقربائي،

ورأى أنّ الختّان لم ينجز مهمّته كما يجب. أخذ بدوره سكّيناً ودعا أبناء عمي لمساعدته. أمسكوا برجليّ ويديّ وبدأ هذا القريب ينظّف كما قال ما نسيه الختّان أو ما يسمّيه «اللحم العار» الذي يجب التخلّص منه. في هذه الأثناء عاد أبي وأنقذني من هذه المجزرة وعيناه مملوءتان بدموع الفرح والشفقة. أمّا أمّي فقد جمعت أوراق التين وبعض مستخلصات الصخور لعلاج جراحي.

بعدها بأيام، قلّدني حزام حزاماً وسكّيناً وهو يقول: «ها أنت رجل وعليك ألاّ تخون هذه اللحظة الخالدة أبداً. إياك والنساء لأنهن عائق أمام الرجال، من الآن فصاعداً لم يعد لك الحقّ في أن تحبّ أو أن تغنّي إلاّ لحقولك».

تمّ ختاننا جسدياً على الطريقة القديمة، لكنّنا حرمنا من كثير من المباهج التي تصاحب الختان عادة في القرية، حتى قريبتي الجميلة التي أشعلت بمفاتنها القرية ذات يوم كانت قد تزوّجت. وحدها «قوس قزحي» كانت الضوء الوحيد في هذه العتمة التي كرّستها المدرسة وما صاحبها من جفاف ومحافظة. وكانت بعثت لي حزاماً يحمل رائحتها، وقد احتفظتُ به إلى جانب حزام أمّي.

قبل الختان، لم نكن إلاّ أطفالاً في نظر النساء. في حين ينظر إلينا الرجال على أنّنا مجرد بدايات أو خلايا قد تصبح رجالاً. والختان إذن هو بداية العبور إلى الحياة الحقيقية، وقد أنجزنا في نظر حزام اختبارين حاسمين واجتزناهما بنجاح، وهما الختان واختبار المرحلة النهائية في المدرسة الابتدائية. ممّا يؤهلنا لمغادرة

القرية نهائياً والذهاب إلى المدينة التي حصلنا فيها على تواريخ ميلادنا حيث توجد المدرسة المتوسطة الوحيدة في المنطقة يومها، وحيث علينا أن نقيم وحدنا ثلاث سنوات دراسية بعيداً عن حضن القرية.

كانت مغادرة القرية بالنسبة لي نوعاً من الموت لا يمكن مقاومته إلاّ بالماء الذي هو أصل القرية والمرجع الأمين لذاكرتها، لتاريخها، لصراعاتها، لأسرارها، ولروحها أيضاً كما يقول حزام. ولذا اغتسلت وشربت من كل الآبار والأحواض، عبرت القرية بكل طرقاتها المعوجّة والمظلمة مغمض العينين. أحببتها وعرفتها. أعرف أين كانت الطيور تخبّئ أعشاشها. أعرف حيواناتها، أشجارها، أدوات العمل فيها، أيّامها، لياليها. رائحة كلّ فرد فيها. رائحة المطر، وزمن كل شيء فيها.

دعاني حزام لمشاهدة كل وثائق القرية. أسرّ إليّ بكلّ ما يعرف أملاً في أن أصبح حقلاً لذاكرته وذاكرة القرية. وضعني أمام الثقبين الخاصّين بحركة الشمس، وهما ثقبان لا تصلهما الشمس إلاّ مرّتين في السنة: مرّة عندما تحين زراعة القمح والشعير، والأخرى حين زراعة الذُّرة والمحاصيل الشتويّة الأخرى. كان حزام يعرف كل النجوم، وكأنّه يتفحصها بيديه حين يحدّثني عنها. يقول إنّها تتزاوج في ما بينها وتتناسل تماماً كالبشر، وثمّة حكيم آخر من القرية يقولها صريحة، بأنّ النجوم تمارس الجنس علانية في الفضاء البعيد، كالأشجار والأحجار والمياه والرياح.

ويؤكّد أنّ كلّ حركة، وكلّ ولادة، وكلّ معرفة تأتي من هذا اللقاء. وكانت القرية منقسمة بينه وبين حزام. والمرّة الوحيدة التي التقيا فيها على نقاط كثيرة، هي تلك التي ذهبا فيها يرحّبان بعودة حكيم ثالث عاد من مملكة السويد حيث كان مرافقاً لابنته التي أرسلتها الحكومة للعلاج على نفقتها. ومنذ أن عاد، بدأنا نسميه «السويدي» وقبلها كانوا يدعونه «ذو الذكرين» كما أخبرتني جارتنا العجوز.

هذا «السويدي» أشعل القرية بالعجائب التي يرويها عن بلاد السويد. وخصوصاً عن النساء في الشمال، الشمس التي لا تغيب، الدرّاجات، التلفزيون، التليفون، السيارات... لكنّ أكثر ما كان يثيرنا جميعاً هو حديثه عن السويديّات. عن أفخاذهن، عيونهن، شعرهن. مما جعل بيته لأسابيع عديدة محطّة لكبار السن الذين يشتهون سماع هذه العجائب. ولقد علّق أحدهم قائلاً: «لحسن حظك أنك تحمل إثنين، ولا بد أنك تركت هناك بعض الآثار التي لن تموت» وأضاف هذا الرجل المسنّ بأنّه الوحيد في القرية الذي يعيش على الطريقة السويديّة، بحكم زواجه من ثلاث نساء. الصغرى منهن تشبه إحدى السويديّات كما عرف من أوصاف المسافر. وأمام هذا التعرّي، نهره الإمام ودعاه إلى الكتمان والاحتفاظ بهذه العلاقة بينه وبين زوجاته، وكان حزام على ما يبدو مؤيّداً للإمام. بفضل هذا «السويدي» بدأنا ندرك أنّ هناك عالماً خارج قريتنا وما يحوط بها من قرى. ورغم بُعد هذا العالم واختلافه وغرابته إلاّ أنّ صاحبنا ورفيقنا عاد حيًّا وأكثر وسامة من

ذي قبل لأنه فقط، قصّ قليلاً من شعر لحيته، بحيث بدت أقل توحشاً من لحى الآخرين الذين لا يمسّونها إلى أن يموتوا.

من جانبها، ظلت ابنته تحدّث نساء القرية عن مشاهداتها، وعن الملابس الداخلية التي ترتديها النساء هناك وما حملته معها من هذه الملابس، وأيضاً عن الساعة التي اشترتها. وكان أبوها أوّل رجل يحمل ساعة في القرية، وربّما في المنطقة. وكلّما رأيناه سألناه عن الوقت، حتى لو لم نكن ندرك معنى لأسئلتنا أو لإجابته.

استمرّت الفترة السويدية وأسئلتها أسابيع عديدة، مما هيّأ القرية نفسيًّا لرحيلنا نحن أولادها إلى المدينة.

كان أبي قد أصيب بفتق في أسفل بطنه. واستمرّ هذا الفتق في الاتساع. ولم يكن في الإمكان علاجه إلا بجراحة في المستشفى المركزي في العاصمة. ذلك المستشفى الذي كنّا في القرية نعتبره مُلكاً لنا، لكن الرحلة ستكون مكلِّفة حتماً، ولم يكن لدى أبي شيء من المال، لا لسفره ولا لسفري. جاء ثلاثة من أهل القرية وأنقذوه بقرض كريم. لن أنساه ما حييت. أعطاني أبي نصف المبلغ، ومن نصفه الآخر اشترى لي ملابس وحقيبة ودفاتر وتمراً وحبراً، وأعطى أمي وأختي جزءاً من نصيبه، ولا أعرف إلى الآن كميّة المبلغ الذي احتفظ به.

قبل يوم من مغادرتنا القرية. دعانا حزام إلى بيته، وبعد

العشاء، أخرج من مخزنه سروالين، أحدهما لابنه والآخر لي. وقال: «شرف الرجل في حفظه لذكره وماله، وشرفكم شرفنا كلنا، وإلا فإني سأعود بكما إلى القرية». وقبل رحيلنا كان لا بدّ من أن نزور كل عائلة في القرية. الأمهات قبَّلننا على شفاهنا، ونحن قبَّلنا رؤوس الآباء وجباههم. وكان يوم سفرنا يوم عزاء في كلّ البيوت.

مدينة السحاب

في السيارة التي نقلتنا إلى المدينة، كشف لي صديقي عن المبلغ الذي يحمله لهذه الرحلة الطويلة، كان مبلغاً زهيداً جداً، اقترحت عليه أن أضمّه لما معي بدون أن نروي لأصدقائنا الآخرين ما حدث. نزلنا ضيوفاً عند أخواننا القدامى، الذين سبقونا بسنة في هذه المدينة، وما إن فتحت حقيبتي حتى بدت لي الكارثة. كانت المحبرة قد انكسرت ولوّثت ملابسي وكلّ ما اشتراه لي أبي. اقترب منّي أحد أخواني القدامى لمؤاساتي، وأخبرني عن وجود اختراع سحري يزيل الحبر عن كل شيء. ذهبنا لشرائه في الحال، واختفت آثار الحبر بسرعة فائقة أمام دهشتنا جميعاً. قال هذا الزميل بأن المزيل صناعة سويدية، فاستعدنا حكايات السويد، وتخيّلنا ما نشاء بعيداً عن رقابة الكبار.

بعد أيام من استقرارنا، اكتشفت أن في هذه المدينة من الشعر والغناء أكثر ممّا في القرية، وتيقنت بأن سكان هذه المدينة

كلهم من الشعراء الذين غادروا القرى مفضلين الغناء على الحقول، كانوا يرقصون كلّ ليلة. وكلهم في حالة عشق تشبه الجنون، وقد دخل زملاؤنا القدامى في هذا الحقل من الشفافية والصبابة.

المنزل الذي استأجرناه يقع بالقرب من المستشفى، أو بالأحرى من الممرّضات الباكستانيات. وكنت قد تكفّلت بصديقي الذي لا يكفي مبلغه لدفع نصف الإيجار. وهو لا ينفكّ يؤكّد لي بأنّي أبوه الحقيقي.

جلَب كلّ منّا كيساً من الطحين وقليلاً من السمن والعسل.

كلّ صباح كنّا نعدّ خبزنا بأيدينا، نقارنه بخبز أمّهاتنا، نُغمض أعيننا ونكتشف أنّ الجوع يلتهم الأخضر واليابس، ثم نذهب إلى المدرسة.

أثناء الفسحة ـ بين الثلاث الحصص الأولى والثلاث الأخيرة، يأكل أولاد المدينة الساندويتشات ويشربون عصير الفواكه، بينما نحن نعرض أنفسنا للشمس بأفواه مغلقة تغالب الجوع، وما تثيره فينا مأكولاتهم ومشروباتهم من لعاب.

عندما نخرج من المدرسة، كنّا نركض إلى البيت. لإعداد وجبة الغداء المؤلّفة من الأرز الأبيض فقط. وفي المساء نعدُّ مجدّداً خبزاً بلا طعم ولا رائحة نبتلعه بفضل الشاي المحلّى جداً. هكذا نعيش أسبوعنا الدراسي، ما عدا يوم الجمعة، يوم الإجازة حيث

نُكرم أنفسنا بفطور من الخبز المطرّز بالسمسم، نشتريه من مخبز مجاور. مما يشكّل لنا متعة فائقة.

معبّئين بالطاقة كلّ صباح، كنّا نشاهد الممرضات الجميلات، نشتهي ولو نظرة عابرة، نعود جوعى من المدرسة لكي تلفحنا روائح الأكل الشهيّ المنبعثة من المستشفى، نعيش هذا التعذيب المتواصل صباحاً ومساءً بلا ندم، على العكس من ذلك كنّا نتساءل لماذا لا يأتي الناس للسكن بجوار المستشفى للتمتّع بهذا العذاب.

قديماً قال لي حزام بأنّ كل المدن قامت في الأصل على مقربة من كنز، والناس يأتون من كلّ مكان بحثاً عنه، ومع مرور السنين ينسون الكنز. أمّا أنا فقد رأيت في هذا المستشفى رمزاً للكنز، لكنّ جداراً عالياً يحول دون بلوغه.

بعد أن نتناول فطورنا العظيم يوم الجمعة، كنّا نذهب إلى وادٍ بعيد عن المدينة وهناك نغسل ملابسنا، وأثناء تجفيفها في الشمس، نغسل أجسادنا قريباً من قرى متناثرة، كلّما رأيناها تذكّرنا بمرارة غربتنا وبعدنا عن قريتنا الأمّ. هناك حيث نقتنص الحياة اقتناصاً. ونختطفها من فم الزمن بأيدينا وأسناننا في الشمس وفي المطر. يستوي في ذلك الرجال والنساء. كلٌّ يحمل جرحه، وكنّا نداوي جراحنا بالبول، تماماً كما أوصانا حزام، وخاصة جراح الأرجل والقدمين. ونضيف له قليلاً من التراب، ونعرضها للشمس لكي تجفّ. والسكاكين التي كنّا نحملها، كنّا نستخدمها لنزع الأشواك من أقدامنا الحافية أكثر من استخدامها في الدفاع عن

أنفسنا أو لذبح الماشية. في المدينة فقط اكتشفت أنّ لي أظافر، بينما لم يكن أمامها فرصة للنمو في القرية لأنّها كانت أدواتنا الوحيدة في كلّ عمل.

في هذه المدينة، اقتربنا من الشمس أكثر ممّا كنّا عليه في القرية، وقد ضاعف من جفاف أجسادنا أنّه لم يتبقّ لدينا شيء من السمن والحليب خلافاً لما في القرية حيث كان كل منّا يشرب الحليب صباحاً ومساءً ويدهن جسده وشعره بالسمن. هناك كنَّا نفيض صحة ورواءً. بينما هنا بدأنا نتلوّن بلون الأرض الجافة، بالرغم من أنّنا نعيش غالباً وسط السحاب. وأهل هذه المدينة يقتسمون السحاب كما نقتسم الحقول في القرية. كل منهم يعرف نصيبه منه. وكانوا يعقدون مواعيدهم ولقاءاتهم في بعض السُحب. وبعضهم يفقد ماشيته فيها. وهكذا كنّا نستقبل في بيتنا ـ دون أن يرانا أحد ـ بعض الأغنام التي كانوا يدعونها يومها «مصرية» وهو نوع من الماعز يدرُّ حليباً بكميّات كبيرة. وكان زعيمنا يوصينا بأن نحلب قليلاً من كلّ عنز، ونعطيها ما تبقّى من خبز الصباح، واستمرأنا هذه العادة، نُعدّ حليباً بالشاي لم يسبق أن ذقناه، وهي استمرأت كميّة الخبز واعتدنا نحن وهي على هذا اللقاء اليومي الحميم. وكنا نحرص على ألاّ يكتشف أحد هذه اللقاءات فيما الأغنام كانت تأتي بكل طمأنينة وثقة.

استعدنا بهذا الحليب قليلاً من نضارتنا التي كنّا عليها في القرية، إلى أن وشى بنا جارنا، وهو طالب غريب مثلنا، إذ أكّد

لصاحب الأغنام والماعز أنّنا نحتضن ماشيته يوميًا. ولأنّ المالك كان قد اشتراها برًّا بوالديه اللذين لا يمكن أن يأكلا الخبز في رمضان بدون لَبَن وسمن، جاء يتوسّل أن نقلع عن لعبتنا ـ على الأقل ـ خلال الشهر الكريم، ووعدَنا بأن يغضّ الطرف لاحقاً. أمّا جارنا الواشي والثرثار فقد زارنا ليبارك لنا بدخول رمضان. كان يسكن قريباً منا، في غرفة بلا نوافذ. وتنبعث منها روائح كريهة بفعل استخدامه دورة المياه، بينما نحن اتّخذنا قراراً جماعيًا بإقفالها نهائياً وعدم استخدامها. واصلنا الحياة في هذا الجانب كما كنا نفعل في القرية. مما جعل بنات المالك يتّهمنني ـ أنا الصغير ـ بقضاء الحاجة قريباً من بيتهم، إلا أنّ زملائي دافعوا عني على اعتبار أنّي تربّيت تربية قطّ من عاداته أن يدفن أذاه. هذه التُهمة جرحتني في العمق، لأنها بدت موجّهة لما عوّدتني عليه أمي وعلمتني في صغري. بالإضافة إلى أنّ هؤلاء البنات يحتقرنني بهذه التهمة ويتعاملن معي كما لو كنت لم أختتن، رغم أنّي كنتُ أحبُّ الصغرى منهنّ حباً لا يعلم به إلاّ أمّها، التي حاولت مؤاساتي ولكن دون جدوى.

تمنّيت لو ننتقل إلى سكن آخر، لكنّنا لم نكن نملك حتى إيجار البيت الذي نقيم فيه. ولم يعد في حوزتي ريال واحد. كنت قد صرفت ما أعطاني أبي، وأبو صديقي المقيم في القرية لم يرسل لنا شيئاً عدا الطحين، أمّا أمّي فلم تكن تملك شيئاً وأبي كان يخضع للعلاج.

تذكّرت أنّ لنا قريباً يسكن في المدينة المجاورة. وقد أصبح من كبار أثريائها. وكان سبباً في إصابة أبي بالفتق الذي دفع به إلى العاصمة لأنّه حمل لهذا القريب كيساً ثقيلاً جداً مليئاً بالقمح.

وكان أبي قد أوصاني ألاّ أطلب من هذا القريب شيئاً مهما كانت حاجتي. لكنّه لم يكن أمامي خيار آخر. ركبت سيارة أجرة مع عدد من المسافرين لرؤيته. وعندما رآني، أقسم على المصحف مباشرة أنّه لا يملك ريالاً واحداً في جيبه. وكنت أرى «الدراهم» في الصندوق. لكنّي قبلت بهذا القسم العظيم وخرجت. اصطحبني إلى سيارة أجرة يعرف سائقها، وتوسّله أن يعيدني مجّاناً إلى حيث كنت. شعرت لحظتها بإهانة عميقة، ووعدت السائق أن أسدّد له ثمن العودة في أقرب وقت ممكن.

عدت إلى البيت باكياً. ورويت لزملائي مرارة المغامرة وكيف أنه كان عليّ ألاّ أعصي أبي مهما حدث. حتى لو أموت من الجوع. أخذني الكبار جانباً واعتقدت أنّهم وجدوا حلاً. لكنّي فوجئت تماماً، إذ إنّهم أثاروا معي موضوعاً آخر.

وعرفت من كبيرهم أن جارنا يتّهمني بسرقة خزانته وإنّي إنّما ذهبت إلى المدينة الأخرى لإخفائها عند قريبي.

يا إلهي! تذكّرت أبي في مرضه، وأمّي في القرية وتمنّيت لو أنّ الأرض ابتلعتني.

«لا تنس الله»، كانت هذه الجملة آخر ما قالته أمّي لي قبل رحيلي إلى المدينة. وقد جاءت بالفعل اللحظة المناسبة لذكر الله. دعوته من قلبي أن يكشف عنّي هذا الغمّ. لم يسمع أحد هذا الدعاء إلاّ الله. في ذلك المساء لم ينم أيّ منّا. ولم نذق لقمة واحدة، إذ لا يمكن في مواجهة هذه الكارثة أن يجد الطعام طريقاً إلى الجسد. لأن الحلوق كانت مسدودة بعبرات أثقل من كل صخور الأرض. ولم يتوقف كبارنا عن الذهاب والإياب داخل البيت، انهمرت دموعي وكأنها منبعثة من جوف الشمس. ولم أعد أرى شيئاً. اقترب منّي صديقي وبكى بحرارة تفوق حرارة بكائي، كما لو كان هو المتّهم، ثمّ تحول البيت إلى مناحة، وفي هذه الأثناء دخل علينا مالك البيت. كان يريد أن يقصر حديثه على الكبار، لكنّنا أصررنا جميعاً على أن يكون الحديث مشتركاً. وإذا به يخبرنا أنّ الجار الذي اتّهمني قد أصيب فجأة بالشلل. وأنه لا يتمنّى في حياته إلاّ أن أغفر له تلك التهمة التي شلّتنا كلّنا. ذلك أنّ السارق لم يكن غير ابنه الوحيد. عندها استعدت روحي، استعدت أبي وأمّي والقرية وأصدقائي، وزالت الظلمات التي أطفأت عينيّ. ولكنّي لم أستطع مطلقاً أن أعفو عنه، وكيف.. لي ذلك؟ إذ قبْل أن يطلب العفو كنت أخشى أن أفقد يمناي في السوق، بعد سجن طويل. ويومها كان الشرع قد حلّ تماماً محل العرف القبلي في معظم الميادين، وكنت أعتقد أنّ من الممكن مثلاً أن يدان الإنسان بما لم يقترف، والذي أخافني حقيقة هو ما نسمعه عن شهود الزور الذين يشهدون ظلماً مقابل حفنة من المال

رغم مخاطر هذه الشهادة التي تنتظرهم في الدنيا إذا اكتشف القاضي كذبهم، وفي الآخرة جهنم وبئس المصير.

كان يشغلني أكثر من السجن وقطع اليد، أنّ هذه التهمة كفيلة بالقضاء على مستقبلي وعلى الآمال التي تنتظرها مني القرية. حيث كان نجاحي في المدرسة قد غطّى على بعض المآخذ التي كانت القبيلة لا تقبلها في أبنائها. إذ؛ لم أكن شجاعاً بمقاييسها ولا مشاجراً ولا عدائيًّا، وإنما كنت أبكي دائماً، وكنت أصاب بالدوار في الأماكن الشاهقة، ولكن هذا النجاح حوّلني إلى نموذج جديد يتمنّى الآباء تحقّقه في أبنائهم ويثنون عليه في كل مجالسهم.

وكان يرعبني أن تقضي هذه التهمة الكاذبة على هذا النموذج وعلى كل ما أنجزت. ولذا لم يكن من السهل أن أعفو عنه ليلتها، أقسمنا على المصحف، أصدقائي وأنا ألاّ نكشف ما حدث لأحد، وأن نخفيه إلى الأبد، ويبدو أنّي الآن أخون تلك اللحظة. كنّا جميعاً قد نفّذنا حرفياً وصيّة حزام: «شرف الرجل في حفظ ذكره وماله» إلى درجة أن بعضنا كان يستحمّ في ملابسه، ولا ننظر إلاّ خلسة إلى الممرضات الباكستانيات، أمّا المال فلم يكن لدينا ما نحفظه، بل لم يكن لدينا ما يكفينا لأكل أرزّ أبيض وخبز جافّ.

كانت هذه المرحلة أتعس مرحلة في حياتنا، وخصوصاً حياتي، إذ لم أكن أعلم شيئاً عن حال أبي في العاصمة. ولم تكن أخبار أمّي مطمئنة أيضاً. وها هو عيد رمضان يقترب، وعليّ أن

أتحمّل كل المسؤوليّات التي كانت من شأن أبي المريض الغائب الذي عوّدنا على الحياة برفاهية رغم إمكانياته المحدودة. وحتى أكون على مستوى المسؤوليّة، ذهبت إلى أحد الأقرباء في المدينة نفسها، ولم يكن قد سأل عنّي أبداً رغم معرفته بوجودي هنا. وطلبت منه المساندة أيّا كانت. قال لي: إنّ أخبار أبي ليست جيّدة، ولكنّه سيضمنني عند أحد الباعة الذين يعرفهم لأشتري منه ما يكفي لمناسبة العيد من قهوة وسكّر وشاي وهال وبعض الهدايا لأمّي وأختي، واصطحبني إلى صاحب متجر يبدو أنّه من القرى المجاورة، بل إنني عرفت في وقت لاحق أنّه هو الذي باع حتّى نصيبه من الرياح في قريته قبل أن يهاجر. وفي متجره وجدنا عدداً من المهاجرين الذين أصبحوا رموزاً في المدينة، واكتشفت أنّهم كلهم يعرفون أبي وأهلي الذين كانوا يعيلونهم في القرية قبل الهجرة. شرح له هذا الكفيل وضعي، في حين كان الآخرون يثنون على أبي ويتمنّون ألاّ يموت. إلا أنّ التاجر بدا وكأنّه لم يسمع شيئاً، اعترضت بحدة على تهميشه لنا. فقال:

ـ يا صغير! إنّي أحبُّ أباك وأقدّره، لكنّي لست متأكّداً من عودته، أمّا كفالة هذا السيد فليست كافية أبداً. وأمّا بعثتك فأنا متأكّد بأنّ الحكومة ستعطيك إيّاها في نهاية العام وعندها تعال مثل الرجال ومعك المال، واشتر ما تريد، ويمكن لحظتها أن تحلّ محلّ أبيك. أمّا الآن فحافظ على دروسك. وليس لك مصلحة أبداً في تحمّل الديون منذ الآن، ثمّ إنّه لا يمكن أن نثق بأحد في مثل

سنّك، أمّا أمّك فلن تكون مسرورة حين تراك في هذه الهيئة وكأنّك خارج من القبر للتوّ.

يومها، كنت أخرج من همومي بدموعي. إلاّ أنّي أمام حقارته واحتقاره النادرين، جاء ردّ فعلي عنيفاً وصارماً. خاصّة عندما سمعته يوصيني بأن أتمنّى لأمّي عيداً سعيداً وما صاحب ذلك من شماتة. كانت أمامي مجموعة أكياس كبيرة يعرض فيها بضاعته من قهوة وأرزّ وسكر وهال، نثرتها واحداً واحداً على الأرض. ثم انطلقت بسرعة الرياح عائداً إلى المنزل، وحدّثت زملائي عن هذه الإهانة التي تمسّ القرية بكاملها.

لبسنا أحزمتنا وسكاكيننا وذهبنا لتصفية حساب القرية مع هذا المتنكّر لكلّ شيء. رأيناه وهو يلتقط ما أمكن جمعه من الأرض، وكان لحظتها يسبّ كل القبيلة التي ننتمي إليها وقريتنا بالذات. وعندما رآنا التزم الصمت. ومن حسن حظّه، أنّ جاره أدرك نوايانا بسرعة، وكان يعرف آباءنا أيضاً. ويعرف قريتنا وتاريخها ومقاومتها للاستعمار العثماني، فاستقبلنا في متجره. وعرض علينا أن نشتري ما نريد من لحظتها إلى نهاية العام، أي إلى أن نستلم مخصّصاتنا من البعثة. واشترط أن نوقّع في سِجلّ على كل شيء نشتريه وقيمته آملاً في أن يتمّ تسديده في نهاية العام، ووضع سقفاً موحّداً لا يمكن لأيّ منّا تجاوزه. فرحنا كما لو أنّه قدّم لنا الحياة هديّة. لكنّه فاجأنا في غمرة هذا الفرح بشرط آخر وهو أن نتناول طعام العشاء عنده في ليلة نحدّدها معاً. ولأنّه يودّ أن يكرم

قريتنا كلّها أمام سكّان المدينة، فقد هيّأ لنا عشاءً فاخراً لم نرَ مثله في ماضينا كلّه. سَلَطات وكبسة وحلويّات. وعَزَلنا وحدنا في مجلس خاص مع هذه الوجبة الفاخرة لنأخذ راحتنا كما قال ولنأكل كما نشاء. وكان هذا العزل أحد مؤشرات الكرم. وبالرغم من جوعنا واشتهائنا لتذوق كل شيء، إلاّ أنّنا كنّا محكومين بأخلاقيّات قريتنا التي عُرف عنها لدى كل القرى بأنّ أهلها إنما يذوقون الوجبة فقط ولا يزيد أحدهم عن لقمتين أو ثلاث ثم ينهضون كرجل واحد. وهكذا فعلنا لدى مضيفنا، وعندما رأى الوجبة سليمة تقريباً، كشف لنا أنّه كان وما زال يتمنّى أن ينتمي إلى قريتنا وقيمها. وروى لنا ما قال إنّه حديث شريف «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع. وإذا أكلنا لا نشبع».

وكنّا فوجئنا بغنى هذه الوجبة وتنوّعها. إلاّ أنّ الذي أدهشنا حقاً هو أنّ بيته مزوّد بالماء الساخن والبارد ينهال من صنبورين متجاورين، خصّصهما لغسيل الأيدي والأفواه بعد الأكل، إلى جانب الصابون بأنواع متعدّدة وروائح مختلفة. بعد أن اغتسلنا جاء المضيف بقارورة عطر نادرة، وكلّ شيء كان نادراً ومفاجئاً بالنسبة لنا. عَطّر أيدينا وملابسنا، ونسينا لحظتها حزام الذي كان يقول إنّه لا يتعطّر إلاّ النساء المتزوّجات لجذب رجالهن. وأبقينا ملابسنا على أجسادنا إلى أن غادرتها رائحة العطر تماماً.

وفي نهاية السهرة، قدّم لنا ساعة منبّهة لم يعرف استخدامها إلاّ صديقي، إذ إنّه لم يكن في بيتنا لا ساعة ولا مذياع، ولا

كهرباء ولا غاز،ولا فرشاة أسنان ولا كتاب، ما عدا الكتب المدرسية، ولا جرائد ولا مجلات. كان عزاؤنا الوحيد أنّنا نجيد الغناء.

زمن الجنّ

اقترب عيد رمضان، وكنّا نؤدّي صلاة التراويح كلّ ليلة، وهي صلوات يطول أمدها، ولا تقام إلاّ في رمضان الكريم. وانشغال المؤمنين المخلصين بهذه الصلاة، كان يدفع بعض المغامرين من الطُلاّب الأجانب والفقراء منهم عادة إلى استغلال هذا الوقت لاختلاس أحذية أجود من أحذيتهم، وعَرفنا بهذه السرقات لكنّنا كنّا نعرف أيضاً أنّ الحكومة تقطع يد السارق. ومع هذا لم نقاوم هذه الإغراءات المجنونة.

كنت يومها الأوّل في فصلي ودرجاتي هي الأعلى، خصوصاً في الموادّ الدينيّة، إلى اليوم الذي اكتشف أستاذ هذه المواد أنّ حذاءه في قدميّ وحذائي في قدميه. وأدركت أنّه اكتشف الجريمة. حاولت إقناعه بأنّ الذي حدث كان عن طريق الخطأ. وبكيت لكي يقتنع. استعاد كلّ منّا حذاءه ونلت يومها أسوأ درجة في حياتي رغم تأكّدي من صحّة إجاباتي. لكن هذه المغامرة الفاشلة لم

تمنعني من أن أسطو على واحدة من أكثر الأحذية رقّة ودقّة لكي أهديها لأمّي بمناسبة العيد.

في صباح لا يُنسى، ذهبنا إلى محبوبنا التاجر، اشترينا منه ما يحتاجه أهلنا في القرية من قهوة وغيرها. كان ذلك اليوم يصادف موعد السيّارة الوحيدة التي تتّجه إلى ديارنا مرّة في الأسبوع. غادرنا المدينة ونحن أكثر صلابة، فخورين بالعودة محمّلين بما لذّ وطاب. شعرنا عندها بأننا رجال فعلاً. وكنّا نودّ أن تعاملنا القرية كما تعامل أخواننا الكبار الذين يعودون بالخيرات من العاصمة. بدأت رائحة القرية تقترب ومعها عيون وابتسامات وفرح أولئك الذين سنراهم عن قريب. آه كم كان البعد فظاً وبشعاً!

أنزلَنا السائق على مسافة عشرين كيلومتراً من القرية. وأصبح علينا أن نقطعها مشياً على الأقدام ونحن نحمل أثقالنا «ممّا لذّ وطاب» وثقُل. يقترب شهر رمضان من نهايته. والشمس كانت على مشارف الغروب. وقد مسّنا الجوع والعطش في كلّ مكان من أجسادنا الناحلة، لأنّنا كنّا نصوم أيضاً. خلعنا أحذيتنا لكي نحافظ عليها من أشواك وأحجار الطريق ودوابه. ومشينا إلى أن وصلنا إلى القرية في وقت متأخّر. كانوا جميعاً في انتظارنا، الآباء والأمهات والأخوة والأخوات. ما عدا أبي. احتضنني الآباء الآخرون كما لو كانوا أبي، إلاّ أنّ هذا لم يحل دون أن أبكي بين ذراعي أمّي.

عاملتني أمّي على أنّي سيد البيت، كانت على مسافة بعيدة

مني. ثم ذهبت إلى المطبخ لكي تعدّ لي القهوة، وقد عرضت أمامها ما اشتريت، سمعت كلماتها مبلّلة بالدموع، وأختي/ذاكرتي امتدحتني وامتدحت ملابسي وقالت إنّ بنات القرية ينتظرن منذ زمن عودتنا. وأكّدت لي بأنّ أبانا لن يكون معنا في هذا العيد. وطوال فترة العشاء كنّا نأكل نحن الثلاثة بصمت مطلق، ودون أن ينظر أيّ منّا إلى الآخر. وبدا البيت فارغاً من كل شيء. فتحت النافذة وإذ بي أطل على ليل كثيف، كان لي فقط رغبة واحدة هي أن أقبّل قدمي أبي وأن أحتضنهما بيديّ كما كنّا نفعل كلّ ليلة أختي وأنا. أن أشمّ رائحته. كنّا نحن الثلاثة كالأيتام. حتى عودتي لم تغن في شيء عن غياب الرجل الحقيقي.

وبعد العشاء، عدت كما كنت طفلاً قريباً جداً من أمّي. طلبت منها أن أنام في فراش أبي لا في فراشي الذي هيّأته لي. فوافقت. واصطحبت معي سكّينه وعصاه. حاولت ابتكار رائحة الغائب ولم أفلح، ورغم البرد القارس إلاّ أنّي تركت النافذة شبه مفتوحة كما كان يفعل، وفي الصباح وجدتها مقفلة.

عادة، كان أبي هو الذي يؤذّن لصلاة الفجر، يبدأ بإيقاظ الناس منذ بابنا إلى باب المسجد وبعدها يرفع الأذان. إلاّ أنّ الصوت الذي سمعناه ذلك الفجر لم يكن صوته، واستيقظت على الصوت الغائب.

واجتمعنا كلّنا لأداء صلاة الفجر. جئت لوحدي، واحتفظ بي الإمام بعد الصلاة ليحدّثني عن أبي، واكتشفت أنّه كان مريضاً

فعلاً وأنّ العملية التي أجريت له قد فشلت، غير أنّه ما زال حيًّا كما أقسم لي الإمام عندما رأى دموعي. وبالرغم من تطميناته وتصديقي له، إلاّ أني بقيت خائفاً وقلقاً على أبي. ولم يكن في إمكاني مطلقاً أن أذهب لزيارته في العاصمة. وكلّما رآني حزام في هذه الفترة كرّر عليّ مقولة عجيبة «كنت أصغر منك عندما مات أبي». ويعرف الجميع في القرية أنّ حزام أكثر حزناً منّي على أبي.

وفي أحد المساءات، ربّما لمؤاساتي - روت لي أمّي حكاية ذلك العبد الذي فقد ابنه، وما إن دفنه حتى أمره المالك بالذهاب لريّ المزرعة، دون أن يترك له وقتاً للعزاء. أو حتى لتسوية قبر ابنه. ذهب العبد إلى عمله. وأخذ يغنّي على البئر.

يا غَبْنْ عَيني يا غرابِ دَفَنْتَه جَناي وكلٌ مُولَع بجناه

واستمر في نشيده، وكان المالك يسمعه فدعاه.

- ليس لك الحق في أن تغنّي.

- أعرف هذا. وقد سمعته منك سابقاً، ولم أغنّ أبداً، لقد بكيت فقط.

- بلى. لقد غنّيت. لكنّك علّمتني الحريَّة.

- لكلّ حرّيّته، أجابه العبد.

- ما رأيك إذن في أن نقتسم الحقول والغناء؟

ـ حينها سأكون أنا السيد، قالها العبد.

ـ لكل حرّيته.

قبل يوم من سفرنا إلى المدينة مجدداً، روت لي أمّي قصّة أخرى.

قالت إنّه في قريتها وفي قديم الزمان، كان عدد الجن يفوق مائة مرة عدد الإنس، وإنّهم في كل مكان. والناس يردّدون دائماً هذا التحذير «تحت القدم مائة قدم». كانوا يتحولون إلى أشجار وصخور وثعابين وأزهار ومياه وطيور وحيوانات ـ كانوا إذن في كل مكان، حيثما وجّهت نظرك أو سمعك، أو حيثما مشيت أو أحببت أو تكلّمت أو لبست أو أكلت، وسلاحهم الفتّاك كان الجنون وما زال. إذ يكفي أن تؤذيهم حتى لو لم تتعمد ذلك لكي تصبح في عداد المجانين. الشيء الوحيد الذي يحمي الإنس من أذاهم هو أن يقول الإنسان دائماً «بسم الله الرحمن الرحيم» عندما يبدأ بأي عمل أو حركة، وخصوصاً قبل الأكل، لأنك إن لم تقلها فلن تأكل شيئاً وستكتفي بالإحساس بأنك أكلت. بينما هم الذين أكلوا الوجبة كلّها، ولكي تتأكد مما أقوله لك، يكفيك أن تنظر إلى الناس. ستجدهم فريقين: فريق هم أولئك الذين يقولون دائماً «بسم الله الرحمن الرحيم» وهذا الفريق في صحة جيدة على الدوام، والفريق الذي ينسى ذكر الله، وهم الضعفاء والمرضى والبائسون والجياع.

والفريق الأول هم الذين يذكرون الله حتى في الجماع. وهؤلاء يرزقهم الله بأطفال أذكياء مطيعين ويتمتّعون بصحة جيدة. والفريق الآخر على النقيض تماماً، وهكذا في كلّ شيء وفي كلّ مكان وزمان. الجن يسكنون الطبيعة بل هم الطبيعة ذاتها. وسأروي حادثة وقعت لأحد أجدادي القدامى. في ذلك الزمان، كان لأسرتي حقل كبير من العنب. وكان هذا الجدّ مكلّفاً بحراسته من القرود والحيوانات الأخرى المتوحّشة. وفي ليلة، سمع حركة غريبة داخل الحقل فأطلق رصاصة في اتجاهها. وبعدها بدقائق، رأى الجنّ يجتاحون الوادي من كل مكان مرتدين ملابس خضراء، تتقدمهم مجموعة فتيات هنّ من أجمل ما خلق الله وتقودهم جميعاً أجمل الفتيات وكانت تردّد رثاءً حزيناً في ابن شيخهم الذي أصابته الرصاصة وأردته قتيلاً. تقول:

«ألاَ يا قاتل ابن الشريف

لا زاذ زرعك يزيف

لا في شْتا وْلا خريف».

والآخرون والأحجار والأشجار يردّدون وراءها هذا الغناء الحزين، وهم يتقدّمون باتجاه جدّي الذي كان قد اختفى، وقد أنقذه قوله «بسم الله الرحمن الرحيم» من موت محقّق.

وفي قديم الزمان كان الناس يرون الجنّ ويعاشرونهم، وذلك في العهد الذي كان الماء الذي يشربونه يكشف كل أحاسيسهم

وانفعالاتهم. ولأنّ أحداً لا يستطيع العيش بدون ماء، فإنّه كذلك لم يكن في إمكانهم إخفاء أيّ شيء عن الآخرين. ولم يكن أيّ من الإنس أو الجنّ في حاجة إلى الكلمات إلاّ عندما يغنّون، والكلمات التي يوظّفونها للغناء تخرج من أفواههم بألوان عديدة. كان بالإمكان أن تستمرّ الحياة على هذا المنوال، لكن في يوم من الأيام، أحبّ إنسي جنيّة واتفق الطرفان، الجنّ والإنس، على إتمام هذا الزواج، شريطة ألاّ يقول الإنسيّ لزوجته يوماً ما إنها جميلة جداً لولا أنّ لها قوائم ماعز.

للأسف، قالت أمّي بمرارة، لم يكن هذا الإنسي بمستوى هذه المسؤوليّة ولا بمستوى الحب.

وحدث أول انفصال عرفته الخليقة بل إنه الأبشع، إذ لم يكن فقط انفصالاً بين شخصين بل كان نهاية أبدية لعلاقة بين عالمين. ولم يغفر الجن لإحدى أشهر قبائلهم إقدامها على تزويج ابنتها لهذا الإنسيّ. قاطعوها نهائياً، وأخرجوها من عالم النور إلى عالم الظلمة المطلقة وأصبح أفرادها إنساً مثلنا ولكن بجلود يطغى عليها السواد كما ترى، بعد أن كانوا مخلوقات مضيئة. ولم يكن الإنس أقل سوءاً في التعامل مع أفراد هذه القبيلة الكريمة، إذ عاملوهم كما لو كانوا عبيداً منفيين في الأرض. والعبد الذي حدثتك عنه ينتمي لهذه القبيلة التي حُكم عليها بالتشتت في الأرض لسبب بسيط هو أنها بلا أرض، وهو كما ترى حال «الطرف» في جهاتنا.

لم يقطع هذه الحكاية إلاّ سقوط خفّاش بيننا على الأرض،

وبيتنا كان مليئاً بهذه الكائنات. مثل معظم البيوت في القرية. وخصوصاً في الطوابق السفلى التي تقطن فيها الماشية. وهي عادة مناطق مظلمة في الغالب. وبدا لي أنّ هذا الخفّاش قد ضلّ طريقه لكنّ أمي احتضنته، وأخذته بين يديها بكلّ حنان واحترام كما لو كان أحد أبنائها. ثم ذهبت تبحث عن قليل من الزبدة. دهنت يديها بكميّة تكفي لأيدينا كلّنا. ودخلت مع الخفاش في طقوس غريبة. أخذت تفرد جناحيه واحداً تلو الآخر وتردّد أدعية بكلمات لم أسمعها من قبل، ولا تبدو عربيّة على الإطلاق واعتقدتُ أنّ أمي تخفي عنّي بعض الطقوس والعبادات التي لا علاقة لها بالإسلام. وبدت أمّي غارقة تماماً في حالة هذا الخفاش. طلبتْ منّي إشعال النار وفتح كل النوافذ، وكأنّها تودّ أن تشغلني عن انشغالها الذي أثارني.

جاءت أختي/ذاكرتي وهي شبه نائمة، قلت لأمّي «ها هو خفّاش آخر قد وصل».

وأخذت أمارس مع أختي ما تفعله أمّي مع الخفاش إلى أن نامت ثانية. وقبل أذان الفجر، فتح الخفّاش عينيه وبدأ يتحرّك، وعادت أمّي كما كانت.

«لقد أنقذناه ـ قالت أمّي بفرح ـ وسيذهب إن شاء الله إلى الجنّة».

ـ إلى الجنة؟ أليست مخصّصة فقط للبشر؟

ـ هذا الخفّاش يمثل روحاً معذباً لأحد أجدادك. لكن الله تعالى منحه فرصة أخيرة ليمحو ذنوبه ويكفّر عنها. ولأنّه لجأ إليّ هنا على الأرض، فقد التزمت أمام الله سبحانه بأن أتحمّل عنه كل ذنوبه وأن أجاهد لمحوها والتكفير عنها، ولو أنّي لم أفهم رسالته كلّها، ولكن ها أنت ترى، لقد طار ثانية، وهذا المرّة، إلى الجنة، إن شاء الله.

ـ نعم ولكن ماذا بالنسبة لك أنتِ؟ لقد أنقذتِهِ، ولكنك ستكونين لوحدك أمام الله بذنوبك وذنوبه، ولا أتمنّى أن أراك يوماً على صورة خفاش.

ـ بالعكس يا ولدي. لقد اختارني الله لإنقاذ هذا الروح المعذّب. وهو الذي وعدنا بأن من أنقذ نفساً فكأنّما أنقذ الناس جميعاً، وهذه هبة عظيمة لي لكي أنقذ نفسي من جهنم وعذابها. وهي هبة لا تقل عن رؤيتي ليلة القدر، ستكون أمُّك إن شاء الله من أهل الجنّة.

كنت على يقين طفولي بأنّ أمي من أهل الجنة. فلقد كانت آخر من يأكل في البيت. وأحياناً كانت توحي لنا بأنّها تأكل وهي لا تأكل أو أنّها سبق أن أكلت. خصوصاً عندما لا يكون هناك ما يكفي من أكل للجميع. وكلّما قلت لها بأنها حتماً ستذهب إلى الجنة ذكّرتني بحكاية ذلك الرجل الذي قضى حياته كلّها في عبادة الله وعندما مات خيّرته الملائكة بين أن يحاسب على أعماله أو أن يختار رحمة الله.

اختار واثقاً أن يحاسب على أعماله، فاقتادته الملائكة إلى جهنّم، نظر خلفه إلى الله تعالى وهو يقول رُحماك يا ربّ، رُحماك يا ربّ، فأُدخل الجنّة، ثم أضافت:

«والله سبحانه يودّ أن نعمل لحياتنا كما نعمل لآخرتنا».

كنت أعتقد أنّ أمّي قصيدة أبديّة، قصيدة لا تكفّ عن التجدّد. وفي تلك الليلة ـ استعدت الحقيقة البديهية واكتشفتها. وهي أنّ أمّي إنسانٌ كالآخرين. لمستُ قدميها. قبّلتهما. كانتا متورّمتين. وأدركت بأنه لم يعد أمام أمّي إلاّ حياة عاديّة، حياة من المرض والتعب والأحزان والشيخوخة. حياة باهتة.

لم تعد أمي تغنّي، وأبي مريض وغائب، وأختي نائمة أو شبه نائمة. وتيقّنت بأنّ بيتنا مريض. لأنّ بيتاً بلا غناء ولا موسيقى بيت مخيف، وشكّل هذا اليقين صدمة عنيفة في داخلي، وفي هذه الحيرة لم يكن أمامي غير حزام، ذهبت أطلب مساعدته. قرأ ملامحي بسرعة. وأخذني إلى كهف في أسفل منزله، هناك حيث يخفي «كنوزه». وأقسم لي بأنّ أحداً لم يسبق أن وطئت قدماه هذا المكان غيره. وفي عتمة مطلقة، سألني كم أريد:

ـ أربعين ريالاً.

ـ هذا الكنز هو حياتي ومجمل حياة أجدادي. إنه ادّخار أجيال عديدة، ولا يمكن أن أعطيك أربعين، ولا حتى عشرين.

ـ خمسة عشر.

ـ لا.

ـ عشرة.

ـ هيّا. اخرج.

ـ لا أرى على الإطلاق.

ـ كان عليك أن تفكّر في الخروج قبل الدخول، هل تعرف ماذا تعني لي عشرة ريالات؟ قالها وهو يناولني المبلغ ـ إنّها سنوات وسنوات من التعب والسفر، وسأموت قبل أن تتمكّن من تسديد هذه السنوات.

ـ الحكومة تمنحنا مائة ريال شهريًا، لكنّنا لا نستلمها إلاّ في نهاية العام.

ـ مائة. هذا جنون. أو أنّه نوع من الرمل. العشرة التي أعطيتك تساوي عشرة رجال. هل تدرك هذا؟ في إمكانك أن تعيدها لي في نهاية العام، ولكنّها لا تعادل أبداً قيمة العشرة التي سلّفتك. هذه ثروتي وفخري، لم يكن لنا حكومة، ولن أبيع نفسي مطلقاً ولا أحبّ الدراهم السهلة.

ـ أنت بالذات، تقول إننا أولاد الحكومة. وهي التي تعطينا هذه الدراهم، وأنا على يقين بأنّك تستطيع أن تشتري بالعشرة التي

سأعيدها لك، ما يمكن أن تشتريه بعشرتك.

ـ لا يمكن أن تفهم. هذه العشرة غالية، غالية جداً. دفعْنا غالياً ثمنها. وقيمتها معنوية وروحية أوّلاً وآخراً يا ولدي. ولا أفهم شخصياً كيف تعطيكم الحكومة مائة ريال شهرياً، وأنتم بأحذيتكم، بعيداً عن الشمس وتقلّبات المناخ، وبلا أيّ جهد من جانبكم. إنّ هذا ليس عملاً نزيهاً من قبل الحكومة.

ـ إنّهم يعدّوننا لكي نصبح أطبّاء، مهندسين، طيّارين، صحفيّين أو غير ذلك.

ـ ماذا تعني بـ «غير ذلك»؟ هذا يهمّني وأودّ أن أعرف.

ـ لا تخفْ عليّ يا حزام.

ـ لست خائفاً عليك. خوفي فقط على القرية التي ستتركونها جميعاً يوماً ما.

وبعد أن تأكد حزام من أن المبلغ أصبح في جيبي. قلت له:

ـ أعرف أنّك أعطيتني جزءاً من روحك ودمك. وأنا أثمّن هذه التضحية لكنّي على يقين بأنّك إنّما أعطيتها لأبي من خلالي.

ـ هذا صحيح ولكنّك أنت المطالب بتسديدها.

عدت إلى البيت، واقتسمت هذا المبلغ مع أمي وأختي،

وأثنت عليَّ أمي بطرف عينها. ولحظتَها كان أهل القرية جميعاً يستعدّون لتوديعنا، غادرت السيارة مخلّفة وراءها غباراً كثيفاً ودموعاً غزيرة. وما إن وصلنا إلى المدينة حتى افترقنا، فالكبار واصلوا سفرهم في اتجاه العاصمة، بحثاً عن عمل وعن حياة أفضل. وبقينا نحن الصغار كالأيتام بعد رحيلهم ـ لكن لم يكن أمامنا خيار آخر غير الفقر والحرمان والجوع في هذه المدينة الصغيرة التي كانت تُغَنّي لحسن الحظ.

وعندما فتحتُ حقيبتي، وجدت الحذاء الذي اختلسته من المسجد لأهديه لأمّي. عرفت أنّها قبلت الهدية ورفضت السرقة. حملته في الوقت نفسه إلى المسجد. ولم يكن فيه إلاّ الإمام، حاولت أن أخفي وجهي بينما كان هو يقرأ القرآن. أعدت الحذاء إلى مكانه، ولم أعد أبداً إلى ذلك المسجد.

الخروف والكاتب

في غياب كبارنا الذين رحلوا إلى العاصمة. أصبحتُ كالأب بالنسبة للآخرين. «أب بلا مال، كبندقية بلا رصاص»، وخاصّة في المدينة. وإذا كان رحيلهم قد شدّ من عزيمتنا. فإنّنا بقينا صغاراً في عيون الجيران، ولكي لا يسحقونا، قرّرنا أن نحمل سكاكيننا وأحزمتنا كلّ يوم بعد العودة من المدرسة. وكتبنا بخط عريَض اسم قريتنا على جدار البيت الخارجي. وإمعاناً في التأكيد على استقلاليّتنا، قرّرنا ألاّ نصلي معهم في المسجد ذاته. وأن نقيم صلاتنا وحدنا، إلى اليوم الذي عاد فيه أحد زملائنا مجرّداً من سكّينه وحزامه. وكان ذلك يعني له ولنا موتاً حقيقياً. وكان يبكي ويصرخ ويخدش وجهه. ونحن جميعاً نشاركه المهانة والذلّ والعار.

ما حدثَ هو أنّ رجلاً وجده يتحدّث مع ابنته الوحيدة التي سمّاها باسم المدينة، وسمّى بيته «مصر». لأنّها أم الدنيا. هذا

الرجل كان لا يخاف أحداً إلاّ زوجّته التي كانت تخيف كل نساء الحي لمعرفتها بأسرارهن.

ذهبنا لمقابلتها، زميلي الوسيم وأنا، لم يتحرّك زوجها ولم يثره مجيئنا، بل إنّه تصرّف كما لو أنه لم يرنا وفهمت ساعتها أن هذا الرجل ليس إلاّ «زوجة زوجته». أمّا القضيّة الّتي جئنا من أجلها فتخصّ عادة شيوخ القبائل، إلاّ أنّ هذه المرأة كانت تملك كل المزايا والمؤهلات لحلّ مشكلتنا مع هذا الزوج. وأبدينا لها لا فحسب رغبتنا في استعادة السكين والحزام، وإنما إصرارنا على العودة بهما أيضاً. فأقسمت أنها لن تعيدهما ما لم نقبل دعوتها إلى العشاء. واعتذرتْ عن سلوك زوجها المشين وما سبّبه لنا من أذى. ولم يرد منه أي تعليق، وبعد أن وضعت الوجبة أمامَنا، قال لها زميلي الذي كانت تكاد تمتصه بعينيها:

«أيتها السيدة، لن يذوق أيّ منا هذه الوجبة ما لم تكن مصحوبة بالسكّين والحزام».

حملَتْهما ووضعتْهما بين يديه، ولاحظت منها غمزة في اتجاه صاحبي لا يجيدها إلاّ نساء هذه المدينة.

كان زوجها قد غادر لحظة وصولنا، موصياً زوجته بأن تهتمّ ـ كما قال ـ بالصبيان، أي بنا، ويبدو أنها اعتادت على مثل هذا السلوك من جانبه، حيث أسرّت إلينا بأنّه يفعل هكذا كلما دعت أحداً.

ما إن استعدنا «شرفنا» حتى بدأنا نأكل بطمأنينة، ثم أستأذنّا وغادرنا، ما عدا زميلنا هذا الذي طلبت منه السيدة البقاء ليكتب لها رسالة لابنها الذي يعمل في العاصمة.

عاد زميلنا متأخراً تلك الليلة، ولم تمر بضعة أيام حتى أصبح كاتب الحيّ. كلّ النساء يدعونه إلى المجيء إلى بيوتهن لكتابة رسائل لأولادهن البعيدين، بما في ذلك أولئك اللواتي ليس لهنّ أولاد في العاصمة. كان كل مرّة يعود إلينا بقدر مليء باللحم والأرز، والحقيقة أنّه قاسمنا كلّ شيء إلاّ الكتابة. وذات يوم زارنا إمام الحي، وعرض علينا أن نسكن في بيته مجاناً، مقابل أن نصلّي معهم في المسجد كبقيّة السكّان، فسألت صديقي لحظتها إن كان قد كتب رسالة لزوجة الإمام. قال إنه يعيش وحده منذ أن ماتت زوجته، وإنه ليس له ولد في العاصمة، وإنّه كان كاتب الحيّ من قبل.

ـ وهل تعتقد أنّه يكتب بالطريقة نفسها التّي تكتب بها؟

ـ لا أدري. لكل إنسان أسلوبه وقلمه.

كشف لي زميلي بأنّ كل النساء شاعرات بالنسبة له. وأنّه لا تكفي الكتابة وحدها للتعبير عن مشاعرهنّ وأحاسيسهنّ.

أمّا نحن فقد قنعنا بالسكن المجّاني والأكل الذي يحمله رفيقنا كلّ يوم. وأحياناً كان يأخذ ملابسي مع ملابسه ويعيدها مغسولة مكوّية. ومع مرور الأيام تحسّن أسلوب صديقي واجتاحت سمعته المدينة كلّها، وبدأ ينتقل للكتابة من حيّ إلى آخر، ثم بدأ يغيب

بعض الأيّام عن المدرسة.

وفي إحدى غيباته، جاء أبوه من القرية لزيارتنا، قلت للأب إنّ ابنه في مصر، وأقسم زميل آخر بأنّ ما قلته صحيح، ولكنّنا أكدنا له بأنّه يعود من هناك كلّ مساء بقدر من اللحم والأرزّ. وما هي إلاّ لحظات قليلة وإذا بالإبن يعود حاملاً القدر بين يديه.

- أتمنّى أن أرى «مصر» قال له أبوه.

- كُلْ أولاً. وبعدها سآخذكم إلى هناك لتناول القهوة.

- وكيف تفعل؟

- سترى!

جاء الإمام وأعيان الحي للترحيب بأبينا الآتي من بعيد وامتدح الإمام طريقة الأب في تعليم ابنه الكتابة.

- والله إني لا أكتب ولا أقرأ. وحتى الصلاة لا أتقنها جيداً، بينما أجيد حراثة الأرض وريّها، وهؤلاء أولادي يشهدون على ما أقول.

وبالفعل، فالقرية تشهد كلّها بأنّ هذا الرجل، خير من يعتني بمزارعه، وأنّه يحيلها إلى لوحات فنيّة مدهشة تمتّع الجميع. وأضاف الأب بأنّه لم يبدأ أبداً في عمل شيء قبل أن يقول «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنّه بفضل ولده لن يعود من الآن فصاعداً في حاجة لإمام القرية لكي يكتب رسائله. قال له الإمام: «أنا متأكد من أنّ ابنك أحرز معرفة عميقة. بعكس هؤلاء الخرفان الذين

يذهبون إلى المدرسة ويأكلون وينامون بفضله».

خلال هذه الفترة، لم يعلق الابن بكلمة واحدة. وبعدها بيوم، غادرنا أبوه إلى العاصمة لزيارة ابنه الآخر، وامتصاص مدّخراته وما جمعه من رواتب. أمّا نحن فقد استمرّت حياتنا كما هي، في رعاية زميلنا هذا كما لو كنّا أطفاله. وتوقّفنا نهائياً عن جلب الأغنام، مكتفين بما تقدّمه لنا نساء المدينة.

في أحد الأيّام عاد صديقي إلى البيت متكدراً ومحبطاً. أخذني جانباً، وكشف لي أنّه لم يستطعْ على الإطلاق إكمال إحدى الرسائل وقال بحزن:

ـ من عادتي أن أهيّئ نفسي جيداً. أختار كلماتي وبعض الجمل الشعرّية، إلاّ أنّ الذي خانني هذه الليلة هو قلمي، ولم يعد فيه حبر.

ثم بكى بحرقة.

عرضت عليه حبراً وإن شاء أعطيته قلمي.

ـ لا يكفي، عليك أنت أن تأتي معي وأن تكتب الرسالة، وأن نتقاسم المسؤولية. لأنّي فعلاً تعبت من الكتابة يوميّاً من أجل إطعامكم.

ـ تودّ أن تقول بأنّ كتابة رسالة عمل متعب.

ـ بالتأكيد. لقد استهلكت نفسي، ولم يبق لديّ حبر، والدور الآن دورك.

ـ إذا كنت فعلاً تودّ أن أقوم بهذه المهمّة، فعليك أن تعلّمني الكتابة، ويجب أن تعلَم مبدئياً أنني لن أكتب لرجل، لأنهم لا يتجاوزون في رسائلهم طلب المال من أولادهم ونصحهم وأحياناً شتمهم، بينما الأمّهات يكشفن عن أحاسيسهنّ، ويرسلن دعواتهن الصالحات وأمنياتهنّ بكلّ دفء وحبّ.

ـ قلت لك إنّك مهيّأ تماماً لهذه المهمة.

ـ ولكنّي سأنفّذ نصيحة حزام: «على الرجل أن يحفظ ذكره وماله» ولذا لن أكتب لامرأة إلاّ في حضور زوجها. والعكس أيضاً.

ـ وإن كانت امرأة وحيدةً؟

ـ سأذهب بصحبة الإمام، ثم أنّي لم أفهم سِرّك تماماً، لماذا لا تأخذ حبري وقلمي إذا كان هذا هو ما ينقصك فعلاً؟

ـ في المعركة. أيّ معركة، ومنذ القدم، يحمل الإنسان سلاحه الشخصي الذي يعرفه ويتقن استعماله، وإلاّ فإنّه سيفقد المعركة حتماً. وأنا كما تعرف رجل حقيقيّ. ولست. . .

ـ كلّنا اختتنّا في اليوم نفسه، وكنت أنت الوحيد الذي بكى!

ـ بكيت لأنّي رجل، لقد آلمني الجرح، بينما «الخرفان» لا تبكي .وهل سبق لك أن رأيت خروفاً يبكي؟ قل لي الحقيقة.

ـ لا.

ـ إذن أنت أحدها، وإلاّ لكنتَ فهمتَ معنى القلم الذي تحدّثتُ عنه.

ـ لقد بدأت أكتشف الحقيقة، وتأكّد بأنّي سأُحافظ عليه، ولو لم يكن ذلك إلاّ لإسعاد حزام.

ـ ستندم يوماً ما، أمّا أنا فليس أمامي إلاّ أن أستمرّ في إطعامكم. وتأكّد بأنّك لم تفهم ما أعني على الإطلاق.

من عادتنا أن نناقش إشكالاتنا مجتمعين، كما يفعل أهل القرية. وفي صباح جمعة بهيّ، ذلك الذي نفطر فيه على غير عادتنا، وجّهتُ الحديث لصديقي. قلت له: إسمع!

ـ كلّنا نجحنا في دراستنا إلاّ أنت.

ـ عن أي نجاح تتحدّث؟ أنا الذي أسكنتكم وأطعمتكم. في الوقت الذي لم يستطع أهلكم أن يتحمّلوا هذه المسؤوليّة، وعليه، فإنّي أنا الوحيد الذي نجح.

ـ لكن سقوطك في المدرسة سقوط لنا كلّنا. لقد كنّا نعتقد أنّك ستنجح على كلا الصعيدين. ولكن نعتذر لك بحرقة عن استغلالنا لكرمك وجودك. وثق بأنّنا كنّا نفضّل أن نستمرّ في أكل الخبز الجاف وأن تنجح معنا، على كلّ القدور التي أكلناها.

ـ لا. لا تندموا على شيء. واعلموا أنّي سأعيش لوحدي من اليوم فصاعداً، وسنرى. ولكلّ نجاحه.

- لا تنس أنّنا أخوانٌ وأنّ أهلنا ينتظرون عودتنا لكي يحتفلوا بنا معاً.

- القرية تستطيع أن تفرّق بين الكاتب والخراف.

- وهل تنوي فعلاً أن تكتب في القرية؟

- لا. لا. اطمئنّوا، لأنّه لا مكان لكاتب في قريته.

عدنا إلى القرية في إجازة عيد «الضحيَّة». كما يسمّونه، نسبة إلى الخراف السمينة التي يضحون بها، وكان فعلاً عيدنا - نحن الخراف - بينما عاد هو بكمّية هائلة من المال والحليّ وأصبح حديث القرية كلّها. وكان يستقبله الناس في كلّ مكان مثلما لو كان أميراً. ممّا أثار غيرة الخراف بالتأكيد. حاولنا إذن أن نريهم شهاداتنا ودرجاتنا المشرّفة. لكن موقف القرية بدا حاسماً لصالحه. قالوا لنا: لا، ليس لنا هدف من إرسالكم إلى المدرسة وإلى الغربة إلاّ «الفلوس» لا غير. ودَعَونا إلى مشاهدة النجاح الحقيقيّ لا غير.

أما عيدي الكبير الذي يخصّني، فقد كان في عودة أبي، بالرغم من أنّ بقايا العمليّة ما زالت في حاجة إلى علاج. وفرح أمّي كان مضاعفاً، بعودة الزوج والإبن. أمّا أختي فكان عليها أن تدخل حياة جديدة، بأب مريض، وقد قرّر أن يقضي بقيّة حياته بين البيت والمسجد، وأمّ لم يعد في إمكانها القيام بواجباتها المنزلية والقرويّة، وأخ محكوم بالسفر مدى الحياة.

نعم، أبونا الذي علّمنا الموسيقى اختار المسجد، وأمّنا الشاعرة لم تعد تعرف إلا الصلاة وتلاوة بعض الآيات الكريمة.

رفع أبي ثوبه أمامي، وأطلعني على بقايا جراحة في أسفل بطنه، وعرفت أنّه يُعدّني للقبول برحيله النهائي. أنا الذي كنت أعتقد أنّ أبي مصنوع من حجر. أكتشف الآن حقيقة أنّه من لحم وعظم، جسد عادي ـ منهك ـ جسد من شمس وبرد ومطر وتراب. وكانت إقامته في المستشفى قد أزالت عن قدميه آثار القرية وشقوقها العميقة. ولكن إلى متى؟

وفي يوم العيد، يوم التضحية، ذبحنا خروفاً من أجود الخراف التي ذبحت في ذلك اليوم، كانت أمّي قد غذّته سنة كاملة بعناية. وحمّلني أبي مسؤولية الذبح لأوّل مرة. وهنا أيضاً كان يعدّني لخلافته. لأنّ ذبح الضحيّة من مسؤوليّة رب البيت كما اعتدنا. وفي حضرة العائلة كلّها، وقبلها لم يكن دوري يتجاوز مساعدة أبي، ولكنني بالإضافة إلى إتقان الذبح، احتفظت له بمفاجأة لم يتوقعها أبداً. أخذْتُ قليلاً من دم الخروف ووضعته في فمي، ثم رميته جانباً، تماماً كما يفعل حزام. وكانت أمّي قد أعدّت لي سكيناً حادة جداً وخاصة لمثل هذه المناسبات. لأنّ ذبح خروف أو أيّ حيوان آخر كان يعتبر فنّاً في القرية. إذ يجب ألاّ يتجاوز ذلك عدّة ثوان. لكنّه في يوم العيد كان عملاً تعبّدياً أيضاً واستثنائياً لأنّي أذبح لأوّل مرّة وبحضور الأهل الذين شهدوا التزام الابن وانحسار الأب.

كانت أمي وأختي تحبّان هذا الخروف، وضحّتا به لأنّهما تعرفان أنّه سيعرض بلحمه وشحمه الوفير أمام الزوّار.

خلعت ملابسي، وبقيت فقط بسروالي. وتلا أبي الدعاء الخاصّ بهذه المناسبة. أغمضت أختي عينيها وأنجزت مهمّتي. وسمعنا من الآخرين أنّه أسمن خروف ذبح في ذلك اليوم في القرية، علّقناه في حبل في سقف المجلس أمام الزوار والمهنّئين بالعيد وبعودة أبي. ووضعنا ما فاض من الشحم واللحم في وعاء كبير يراه الجميع.

في العيد. يذهب كل أب وأبناؤه لزيارة كل البيوت، وغالباً لا يجدون فيها إلاّ الأمهات والبنات. ولأنّه لم يكن في إمكان أبي المتعب أن يرافقني، فقد شعرت يومها أنّي مبتور وأنّي لست كاملاً. تسألني النساء عن حال أبي. وعن العيد أي «الخروف» الذي أخذ هذا الإسم مع مرور الزمن، ومنهنّ من حدّثنني عن صديقي اللدود الكاتب، وكنت أحاول الهروب من حديث كهذا. لأنّ ما حدث في المدينة يجب ألاّ يتكرّر في القرية.

اجتمعنا نحن الأربعة مساء العيد. وكان اجتماعاً حزيناً، لأنّنا في غياب أبي فقدنا «ثورنا» وقد كان ثروتنا الوحيدة وأعزّ ما يملك أبي، وكنت متأكداً أنّ موته شكّل جرحاً عميقاً لأبي وإعاقة إضافيّة. وربّما ساهم هذا في تعقيد عمليّته وعدم شفائه.

«أنظر إلى حالتي»، قال أبي ذلك المساء. لقد ضحّيت بكلّ شيء من أجل هذه الحقول وها أنا اليوم مجرّد هيكل، وعليك ألاّ

ترتكب هذا الخطأ الفادح بدورك. ليس لك مستقبل إلاّ في الكتب، لأنّ لكلّ زمان حقوله. وسأفعل كلّ شيء من أجل أن تواصل دراستك إلى أقصى ما يمكن. حتى لو اقتضى ذلك بيع بعض هذه الحقول. لا أودّ إطلاقاً أن تجد نفسك يوماً في حالتي هذه. إني مستعدّ للتضحية بكلّ شيء وأنت أوّل من يعرف أن الموت أهْون عليّ من بيع حقل.

في الصباح، زارنا وفد من أهل القرية، وشربوا القهوة مع أبي، والتزم شيخهم بالاعتناء الكليّ بحقولنا إلى حين شفاء أبي. وكان أبي يعرف ثقل هذه المسؤولية في القرية وفي موسم يعدّونه بالثواني لأنّه لا يكفي في الغالب لكي يكمل كل منهم حقوله. سقطت دمعتان نادرتان من عيني أبي أمام الرجال. هو الذي كان يردّد باستمرار بأنّ الصحة في العمل. ولا أحد في العالم يعرف مزارعنا وأسرارها مثل أبي. كان يداعبها بيديه وقدميه، ويُغنّي لها. ويحدّثها. وفي هذه الحقول غرس كل آماله. قُوّته، شبابه. وفيها حياة أهله كلّهم منذ زمن لا يعرفه أحد وكان يزرع حقول أقربائه الذين غادروا بحثاً عن الثروة في المدن البعيدة.

ثم زارنا وفد آخر، من أساتذتي القدامى في المدرسة الابتدائية. وهنّأوه بالنتائج التي حصلت عليها في المتوسّطة، وكانوا فخورين بي مثلما كان أبي. وعندما أدركوا خطورة وضعه الصحّي طالبوه بإلحاح بأن يستكمل علاجه في المدينة حيث نتابع دروسنا وحيث الممرضات الباكستانيات. امتعض حزام لاقتراحهم هذا،

وسمعته يقول: «المداوي الله» وأومأ لأبي بما معناه أن دعْك من هذه الثرثرة. وبعد مغادرتهم، قال إنه يعرف أشجاراً في القرية يستخرج منها أدوية لكل الجراح، بما في ذلك جراح القلوب، وأضاف: «ما خلق الله داءَ إلا وخلق له دواء».

فضّل أبي الذهاب إلى المستشفى، رافقَنا في سفرنا، وتمّ علاجه بنجاح، ورأى «مصر» وإمام الحيّ، وقد استُقبل بحرارة من قبل الجيران، وبالذات من الإمام الذي تدخّل لدى إدارة الشؤون الدينيّة لتعيين أبي مؤذناً في مسجد القرية، محقّقاً بذلك حلم أبي في التقرّب من الله سبحانه وفي الحصول على راتب أيضاً. بينما كان الناس يؤذّنون مجاناً من قبل.

أقام الإمام بهذه المناسبة حفلاً في بيته على شرف أبي، وأصبحا كالأخوين. وفي نهاية الحفل اجتمعا بالكاتب. ولم يرشح شيء عن هذا الاجتماع. إلاّ أنّنا لاحظنا صديقنا وقد أخذ على عاتقه تنظيف المسجد يوميّاً، وتوقف كلّية عن كتابة الرسائل، ووعده الإمام براتب مقابل ذلك إضافةً إلى الجنّة إن شاء الله في الآخرة.

بدا الكاتب سعيداً بهذا الحلّ وهذا المخرج الذي تمّ سرّاً على يد أبي وقال لي:

ـ تصوّر لو أنّه حزام، أما كان سيكسر قلمي إلى يوم الدين؟

ـ هذا أدنى عقاب تستحقّه.

ـ لقد أوهمتكم فعلاً، وتخيّلتم أشياء ما لها من برهان. إنّي كنت أروي لهنّ بعض القصص والأساطير وربّما الأكاذيب. ومن أكذوبة إلى آخرى، اكتشفت أنّ هذا يجلب لهنّ سعادة لا يمكن تصوّرها. من بينهنّ السيّدة الأولى التي أعادت لنا السكّين والحزام على عشاء لذيذ، لقد روت لي بدورها أنّ واحدة من جداتها كانت فقدت إحدى بناتها، وعرفتْ هذه الجدة بعد سنوات عديدة أنّ ابنتها أنجبت طفلاً ولم تولهِ أيّ عناية، وطلبت منّي هذه السيدة أن أقوم بزيارة جدتها التي تقيم في قرية جبلّية تدعى «مصر» وعندما التقيت بها، أقنعتها بأنّي حفيدها المشرّد. تبنّتني، وبعد فترة قليلة، كشفت لي أسرار فرعون الكبرى.

ـ أَهيَ قصة واقعية، أعني حكاية فرعون؟ سألتُ صديقي.

ـ بالتأكيد. وهي القصّة الوحيدة التي رويتها للنساء، بدون استناد إلى حزام!

ـ حزام؟! لم يسبق أن روى لك أيّ حكاية!

ـ تخطئ كثيراً إذا كنت تعتقد أن حزام ملكٌ لك وحدك، بل إنّك تكشف عن حقيقة واحدة، وهي أنّك لا تعرفه جيداً.

ـ أعرف أنّك تودّ استفزازي فقط، ولكن انظر.

كشفتُ له ذراعي التي كواها حزام في ثلاثة مواقع بالجمر، لكي يختبر ذكورتي، وليزرع فيّ النار كما كان يفعل أجدادنا القدامى وقلت له:

ـ هكذا أكونُ امتداداً لحزام. وهو ما لم يفعله مع أحد، حتى مع أبنائه!

ـ هل تودّ سماع القصة أم لا؟

ـ بالتأكيد، ولكن إيّاك أن تنسب إلى حزام أيّ كذب.

ـ سأرويها لك كما رويتها «لنسائي»: البيت الذي كتبت فيه أوّل رسالة كان يُسمّى «مصر». ومن هنا، أقنعت صاحبة البيت وكل النساء في ما بعد، بأنّ البلاد الشاسعة التي تدعى مصر، ليست إلاّ جزءاً من منطقتنا.

ـ لكنك لم تورد اسم حزام، وهذا ما أتمنّاه، لأنّه لم يحب مصر أبداً. ولم يكن يرغب على الإطلاق في الاستماع إلى عبارة «مصر أم الدنيا».

ـ هذا البيت لم يحمل اسمه صدفة. إنّ مالكه ينتمي إلى القرية التي تدعى «مصر» والأسماء تسافر دائماً مثل الرياح. وأسرته تدعى «آل عون» وكان يكفي أن أسمع بهذا الإسم لكي أتذكّر مباشرة حكاية فرعون، فمن المعروف أنّ جدهم «عون» كان ساحراً يعالج كلّ الأمراض، وبالأخصّ أمراض النساء. وادّعى القدرة على إحياء الموتى. وبدا تأثيره كبيراً على النساء. فبعضهن يأتي لاستشارته حتى في أواخر الليل. ويُروى أنّه كان بهيًّا ووسيماً كقصيدة. لكنه لم يتزوّج أبداً كما يقال، ولقد أثار حفيظة الرجال في قرية مصر وغيرتهم، ولم يعودوا يحتملون بقاءه معهم. وقرروا معاً قتله. وعرف عون بالأمر قبل تنفيذ قرارهم. وذات فجر غادر

القرية ومعه وعاءان، أحدهما ملأه بالبنّ والآخر بالعسل. وبعد رحيله، أطلقت النساء اسمه على أبنائهنّ.

في مسيرته باتجاه الشمال، التقى بمسافر آخر، آتياً من أقصى جنوب الجزيرة. وكان هو الآخر يحمل وعاءين. أحدهما مليء بالطحين والآخر بالتمر.

- السلام عليك، أنا عون.

- وعليك السلام، واسمك الحقيقي منذ الآن «فَرَّعون» وأنا أعرف سيرتك، لقد مررت بمصر بعد هروبك وكلما اقتصّ رجل أثرك أو سأل عنك، أجابته النساء «فَرّ عون» أما أنا فاسمي هامان، تاجر الطحين.

- وأنا فرعون إن أردت، تاجر البنّ.

- إذن ما رأيك في أن تأخذ طحيني وتعطيني قهوتك؟ رأساً برأس؟

تمت المبادلة، واكتشفا أنّ كلاً منهما خدع الآخر، فكيس الطحين لم يكن يحتوي من الطحين إلا قليلاً في أعلاه وبقيته رماد. وكيس البن كان مغشوشاً أيضاً، قليلٌ من البن في الواجهة والبقيّة «بَعْر غنم». عندها قال عون أو فرعون مقولته الشهيرة التي ما زلنا نردّدها إلى اليوم: «التقى ساحر الشام بساحر اليمن». وهي أكثر جمالاً في لغة القرية «إنصبّ مْعمّي الشام في مْعمّي اليمن».

ومنذ ذلك الحين، أصبح الرجلان رجلاً واحداً، وهدفهما

المشترك كان الذهاب إلى بلاد النيل ـ البلاد التي ما كانوا يدفنون فيها موتاهم. يتركونهم في العراء محوطين بمجمل ثرواتهم. وصلا إلى هذه البلاد. كان ضوء أخضر يغمر الماء واليابسة. يجعل الناس ينامون معظم أوقاتهم. ولم يكونوا يستيقظون الاّ ليأكوا السمك والخضار والفواكه. كما لو أنّهم في الجنّة. وعندما وصل الساحران، وضعا سمّاً في النهر. واجتاح البلاد جفاف ومجاعة لم تعرفها من قبل. استغلّ فرعون هذه الكارثة. وعرض على كبير الوزراء أن تتمّ حراسة الموتى وثرواتهم ضدّ السرقات أو أن يتمّ دفنهم ودفن ثرواتهم احتراماً وتقديساً لهؤلاء الموتى. وافق الوزير وأوكل المهمّة إلى فرعون الذي كلّف هامان بمساعدته. لم يكن فرعون يدفن إلاّ أجساد الموتي. أمّا هامان فقد أصبح بسرعة مثيرة واحداً من كبار التجّار في البلاد ومن أكثرهم سلطة وتأثيراً وكان ملزماً بكشف حصيلته كلّ مساء بين يدي فرعون.

وفي هذه البلاد، لم يكن للملك إلاّ ابنة واحدة، ولأنّ كبير الوزراء كان يرفض أن تتولّ فتاة ولاية العهد. فقد كشف عن هذه النيّة لصديقة هامان وكلّفه بالبحث عن مخرج. أسرع هذا الأخير وأخبر فرعون بمشكلة كبير الوزراء. وقال له:

ـ لقد اكتشف هذا المسؤول سرّ ثروتي «ثروتنا» وقرّر مصادرة هذه الثروة وإيعادنا نحن الاثنين عن البلاد ما لم نقتل إبنة الملك.

أعطاه فرعون العلاج. ماتت ابنه الملك. وتم دفنها في مساحة شاسعة مع ثروتها.

قدّم كبير الوزراء وهامان تعازيهما للملك الذي كان حزيناً جداً. واستغلّ هامان مأساة الملك وطلب منه لقاء على انفراد بحارس المقبرة. قبل الملك العرض لسماع ما لدى فرعون. وبعد ليلتين من لقائهما. عادت ابنه الملك إلى القصر برفقة فرعون وهامان. تخلّص الملك من كبير الوزراء بأن أعدمه وأحلّ فرعون محلّه، وزوّجه من ابنته. وحين مات الملك خلفه فرعون على العرش، وعيّن الملك الجديد صديقه هامان رئيساً للوزراء. وأطلق فرعون اسم قريته على بلاد النيل.

ـ إنّها حكاية ممتعة بالفعل، والآن أدرك كيف استوليت على قلوب النساء.

ـ إضافة إلى أنّي كنت أعالجهنّ بدواء فرعون، وأقول لهنّ بأنّك أخي وشريكي، مثل هامان بالنسبة لفرعون.

ـ لم أتشرّف مطلقاً بأن أكون أمين أموالك، وكنت أشكّ في نظافة هذه الأموال، لكنّي لم أجرؤ على مجاهرتك بالحقيقة التي كنت أخجل منها. والآن قل لي ماذا نفعل بهذه المبالغ.

ـ ما علينا إلاّ أن نذهب للبحث عنها في الجبل، حيث أخفيتها. ونقتسمها مناصفة إن أردت. وسترى إنْ كانت هذه المبالغ نظيفة فسنعثر عليها بكل بساطة، وإنْ كانت حراماً فلا بدّ من أنّ جنّيًا على هيئة ثعبان يحرسها الآن، ومن يدري فقد نعثر عليها بسلام ونعيد كل مبلغ لصاحبته، ونلغي فكرة اقتسامها.

- يبدو أنّك لم تتعلّم شيئاً في القرية. إن كان أحد الجن قد استولى عليها وحاولنا الاقتراب منها، فإنّه قادر على قلب وجوهنا إلى الخلف، وسنصاب بالعُقم، وهذا أقلّ ما يمكن أن يصيبنا.

- لا تخف، إنّي على يقين من نظافتها. قل لي أين أخفيتها وسأذهب وحدي للبحث عنها.

حملنا سكاكيننا وغادرنا البيت خفية، خشية أن يسمعنا أبي وزملاؤنا. بدا لي المكان الذي أخفيت فيه المبالغ مثل قلعة هائلة يحرسها جنود لا يمكن رؤيتهم، وانتابني خوف جعلني أنتفض من رأسي إلى قدمي.

وما إن وصلنا حتى سمعنا ضجّة حولنا دفعت بنا خوفاً إلى ذروة الجبل في ثوان معدودة. وهناك، في القمة، رأينا الأرض وكأنّها قد اختفت، ولم يعد في الإمكان معرفة أين نذهب ولا أين نختفي. وفجأة سمعت اسمي عن بعد. وإذ بأبي برفقة الإمام، وقد اكتشفا نوايانا من قبل. واستعادت الأرض شكلها القديم وكذلك السماء. وهبطنا لرؤيتهما ووجدنا الكنز بين أيديهما، كل صُرّة مرفق بها اسم صاحبتها. وأصرّ أبي على أن تعاد هذه المبالغ لصاحباتها، إلاّ أنّ الإمام عارض هذا الاقتراح مؤكداً أنّ صاحبي هو الذي يستحق هذه المبالغ، لأنه جلب السعادة لهؤلاء النساء حين أصغى إليهنّ وساعدهنّ على اكتشاف الحياة بوجوهها العديدة. وقال:

«لقد أصبح هذا الفتى جزءاً من حياتهن إلى الأبد، وليس

فيهنّ من ستقبل باستعادة هذا المبلغ. ولكنّه الآن في سنّ لم يعد مسموحاً له برؤيتهن. وحرام عليك يا بُنيّ أن تختلي بأيّ منهنّ، وإلاّ فإنّي سأكون المسؤول أمام الله وخلقه. نعم كان هذا يحدث في ما مضى، أمّا الآن فلم يعد لدينا من حجّة. القرآن في كلّ بيت، والعلماء في كلّ مكان، في المدرسة، في الإذاعة. وليس مقبولاً أن يقول أحد إنّه يجهل شيئاً من أمور الدين وحفظكم الله».

ـ والأموال؟ سأله صديقي.

ـ إنّها لك، وتستطيع أن تتصرف بها كيف شئت.

ـ سأستمرّ حتماً في الإنفاق على زملائي، وأنت أول من يعرف أنّنا لا نأكل لحماً، ولا نعرف الصابون ولا القهوة. وكلّما زارنا أحد آبائنا، اضطررنا لسؤال الجيران، وبما أنّك منعتني من رؤيتهن فلن يعود في إمكاني أن أطلب شيئاً منهنّ. ثم إني متخلّف في دراستي وسأتوقّف عن تنظيف المسجد، وستجد رجالاً في الحي هم أحوج منّي لهذا الراتب. هكذا شرح صديقي للإمام كيفيّة إنفاق هذه الأموال. وبينما هو مستمرّ في حديثه، أسرّ إليّ أبي بأنّه عازم على بيع خنجره الشهير ليشتري ثوراً. كان أبي هو الشخص الوحيد في القرية، ومن القلائل في المنطقة الذين يملكون خنجراً بهذه الندرة. لأنّها من «صبّ الدوجان» وهو نوع من الخناجر المتميّزة، لا يصنعه إلاّ رجل في المنطقة الشرقية من البلاد. وكان هذا الخنجر آخر ما يُميّز أبي عن الآخرين. كان

يعلّقه في صدر المجلس مخبأ في غلافه مثل سيف، سهل الحمل، وله بريق عجيبٍ، لاحظته في المرات النادرة التي سمح فيها أبي لأعزّ أصدقائه برؤية الجزء الحادّ منه. لم يكن مباحاً لنا في البيت انتزاعه أو استخدامه أو حتّى لمسه. وقد تعلّقت شخصياً بهذا الخنجر، وظلّ حلمي أن «أحمله في عرْضي»، كما يقولون في القرية، ليس كإرث بالتأكيد، ولكنّي كنت أعرف أنّ أبي يودّ أن يراني أحمله عندما يعتقد بأنّي مؤهّل لذلك. عندها أكون قد اكتملت، وسينظر إليّ النساء نظرة مختلفة.

لكنّنا لم نكن في حاجة إلى هذا الخنجر بمقدار حاجتنا إلى الثور. فالثور حياة بينما الخنجر زينة. وكنت أسمع أبي يردّد دائماً ذلك المثل: «مُزارع بلا ثور مثل عازف ناي بلا شفتين». وتلافياً لبيعه تحمّل أبي مرارة الذهاب إلى أحد أقربائه الأثرياء، ذلك الذي لم يقرضني ريالاً واحداً عندما كان أبي مريضاً في العاصمة. رفضت مرافقة أبي. ولم يتغيّر حال هذا القريب، بل إنه جرؤ على أن ينصح أبي ببيع الحقول أو تركها عرضة للشمس والرياح. بالرغم من هذه المواقف، إلاّ أنّ أبي ظلّ يحبّه ويواصله بل ويمتدحه!

في كل رمضان، كان يغادر القرية أربعة رجال في اتجاه العاصمة التي نعتبرها مركز النهضة الدينيّة في البلاد. وكلّهم كانوا معوقين نوعاً ما، إلاّ أنّهم يبالغون في إبراز عاهاتهم حين يصلون إلى هناك بحثاً عن أكبر كميّة من الهبات والصدقات. ومعروف

عن أهل العاصمة كرمهم وطيبتهم وتهافتهم على أعمال الخير في هذا الشهر الكريم.

عندما يعود الأربعة إلى القرية، يعودون أغنياء مادياً، معوقين في قيمهم وخلقهم.

رأى أبي أن يعرض على أحد هؤلاء شراء الخنجر، ولأنّ هذا الأخير لم يكن يتصوّر إطلاقاً أن يفرّط أبي بخنجره العزيز، فقد كان موقفه ـ والحق يقال ـ شريفاً ومشرّفاً. إذ طلب من أبي وتوسّل إليه أن يقدّر قيمة الثور وأن يأخذ هذا المبلغ هديّة وبدون مقابل. لكنّ أبي رفض هذا العرض.

ـ لن أشتري هذا الخنجر أبداً.

ـ إنّه خنجري وأتمنّى أن تكون أنت المشتري.

ـ أنت تعرف مصدر ثروتي، ويخجلني أن أراك تبيعه، ويخجلني أكثر أن أشتريه بمال كهذا. وأكثر ما يؤلمني هو أن يعرف الآخرون أنّك في هذا المأزق. أرجوك ثانية أن تقبل كلمتي الأخيرة وستظلّ سرًّا بيننا لا يعلم به إلاّ الله. سأدفع لك ثمن الخنجر على أن تحتفظ به مدى حياتك، لأنّه لا يليق بغيرك.

ـ إن كنت اخترتك، فذلك لأنّي أعلم أنّه سيظلّ في القرية.

ـ أنت تقتلني بهذا الخنجر، إن حملته فسأحمل العار طوال حياتي. وإن كنت تقصد أن أتوقّف عن استجداء الصدقات وجلب

العار لكم فسأفعل، مع أنيّ أخفي وجهي قدر الإمكان حفاظاً على سمعة القرية.

ـ ليس هذا ما أعنيه، فإمّا أن تشتري أو أن أبحث عن مشتر آخر.

ـ سأشتريه.

ـ بأيّ ثمن؟

ـ بالثمن الذي تراه، رغم أني على يقين من أنه أغلى من أيّ ثمن.

ـ أعطني خمسمائة ريال.

ـ هذا مفتاح الخزانة. خذ ما تشاء.

بينما هما يحترقان، كان الخنجر الفضيّ يلمع في لفافة القماش. أخذ أبي المبلغ المناسب وخرجنا. غادر المشتري القرية فوراً لأسابيع عديدة. ولم يحمل هذا الخنجر طوال حياة أبي.

التضحية

أخذت الحياة من أمّي وأبي أقصى ما تستطيع، واقتربا من الآخرة، واقتربت أختي التي ترعاهما من الزواج. ولكي يظلّ أبي رجلاً كاملاً كما تودّ أمّي فقد اقترحت عليه أن يتزوّج. لأنها لم تعد قادرة على الوفاء بأعبائها. لا في البيت ولا في الحقول. ولذا كان لا بدّ لأبي من امرأة. ولكن من؟ نصحته أمّي أن يخطب ابنة أعزّ صديقاتها، غير أن أبي التزم الصمت.

وبينما كنت أواصل دراستي في المدينة، أخبرني أحد الآتين من القرية. بأنّ أمّي قد رحلت من البيت، وأنها سكنت بيتاً صغيراً في أطراف القرية. أيّ كارثة هي هذه! بكيت أمي وأبي، وأختي التي ظلّت مع أبي، ممزّقة بين بيتين. بكيتُ للشعر والموسيقى وحياة بأكملها.

عندما عدت إلى القرية. وجدت أبي وحده في استقبالي، قبّلته على عجل بدون أن ينظر أيّ منّا في وجه الآخر. وأخذ

يمشي أمامي في اتجاه البيت. وكلّ منا يحمل جرحه. فتح الباب. لكنّه دخل بمفرده. لأنّي كنت قد أخذت الطريق المؤدّي إلى بيت أمي. نظرت إلى خلف، رأيت أبي يمسح دموعه. ويدعوني بيده للعودة إليه. بينما كانت أختي تراقب المشهد وهي تبكي على سطح المنزل. كنت أحمل كيساً مليئاً بالقهوة والهال والسكّر، لتقضي أمّي عيداً يليق بها. وصلت. كانت غمامة كثيفة تغطّي عينيّ. وجفاف لم أعرفه من قبل قد استولى على حنجرتي. ومن خلال دموعي رأيت أمي واقفة كجبل مليء بالورود و الأزهار. أنيقة، مبتسمة، وشاعرة كما لم أرها من قبل. وبمجرد أن دخلت عاتبتني على هذه الحماقة.

ـ كان عليك أن تدخل مع أبيك.

ـ أنت أمّي وأبي.

ـ أنا أمّك. أما بيتك فهو بيت أبيك وليس هنا.

ـ كنت أودّ أن أنتقم لك.

ـ أنا وراء ما حدث. أنا الّتي خططت لكلّ هذا، ليحافظ أبوك على مقامه وعلى ما بنيناه معاً وعلى إرث العائلة وسمعتها وشرفها، وأنت تعرف أن بيتاً بلا امرأة ليس إلاّ صحراء.

ـ إذن لم يطردك؟

ـ لا، لقد خرجت بإرادتي، وهو يأتي يوميّاً هنا لرؤيتي

وللاطمئنان عليّ. وكذلك أختك، ولقد تغدّينا اليوم معاً.

ـ إذن. لماذا رحلتِ؟

ـ رحلت لأنه لا يمكن أن تقبل امرأة الزواج من أبيك ما دمت في البيت معه ولأنّه رفض أن يطلّقني، فقد اخترت هذا المخرج. وسأظلّ أمّكما، وزوجة أبيكما ونعيش الحياة كما كنّا نفعل. والآن قُم، فعلينا أن نذهب معاً للعشاء مع أبيك وأختك.

ـ أودّ أن ننتظر غروب الشمس، وأن نذهب في الظلام، حتى لا ترى القرية ما نحن فيه.

ـ القرية تعرفني جيداً. والذي يؤلمني الآن هو تفسيرها لموقفك أنت. سيقولون حتماً «هذا ولد أُمّه» وهذا ما لن أقبله على الإطلاق ولا بدّ أن يعرفوا أنّي ما زلت أتحمّل مسؤوليتي في المرض والشيخوخة كما كنت في شبابي.

استقبلَنا أبي بأصواته وأصوات الرصاص الذي أطلقه ترحيباً بنا.

وجدنا أخواتي وأزواجهنّ في استقبالنا، لكنّ أمّي كانت ضيفة الشرف بلا منازع. وبالرغم من كآبة الجو وتمزّق النظرات وما تعنيه، إلاّ أني كنت مُلزماً بالتكيّف مع هذا الانفصال. كان أبي أكثر تمزّقاً منّا جميعاً وأكثر عزلة. إذ يغادر البيت باكراً كلّ صباح، يجلس في ظل صخر أو شجرة، ويغمض عينيه كالنائم إلى أن

أدعوه إلى الغداء. في هذا الوقت كانت أمّي تلحّ على صديقتها من أجل تزويجه ابنتها.

تقدّم شاب لخطبة أختي. رحّبنا جميعاً به، لكنّ الزواج الأكثر أهميّة وإلحاحاً بالنسبة لأمّي كان دائماً زواج أبي. وكانت تودّ أن يكون زواجاً ناجحاً لأنها تحس بذنب ما. إذ كيف تهزمها الحياة والمرض وتترك عشيرها وحيداً بعد حياة ملآها كرماً وشعراً وسعادة. أمّا أبي فلم يكن يحلم بغير علاج أمّي والاعتناء بها، رافضاً فكرة الزواج مجدّداً. وكان على استعداد للتضحية بكلّ شيء من أجلها، إلاّ أنّها رفضت أن ترى حياتها وقد تحوّلت إلى هباء، وكانت تعرف أن أختي لن تتزوج ما لم يتزوج أبي، وإن تزوّجت الأخت فإنّ الأخ لا بدّ ملزم بالزواج، وهذا ما يرعب الأب. إذ لا يريد لابنه الزواج من القرية ولا يريد له أن يظلّ رهينة الحقول، ولا يمكن أن يحول دون زواج ابنته، هو الذي يحلم بأن يرى أحفاده منها. لهذا ضحّى بنفسه من أجلنا بالرغم من معرفته بما سيدفعه من روحه وبدنه. كان الزواج في القرية ضرورة وواجباً، ولم يكن أبداً للمتعة فقط كما يفعل بعض الأثرياء اليوم. ثمّ إن الزواج كان يدوم. وإذا كان من طلاق فيتمّ في الأغلب بناء على رغبة الزوجات.

لم أعرف إلا عانساً واحدة في العائلة. وقد كانت امرأة جميلة وكريمة، عرفتها وهي مُسنّة. تعيش وحدها في بيت صغير، وتعدّ لنفسها ولائم لذيذة تدعوني غالباً لمشاركتها إيّاها. لكنها لم تكلّمني

أبداً عن أيّ موضوع مهمّ. إلاّ عندما عرفت أنّ أبي سيتزوّج، أخبرتُ أبي أنها تكلّمت، قال لي: «لقد وعدتنا أن تتكلم يوماً ما». وبالفعل فقد أخبرتني أنّ أبي مضطرّ لبيع أحد الحقول كي يدفع المهر. وروت تاريخ حقول القرية التي تنتقل من يد إلى أخرى بفعل الزواج، مؤكدة أنّه لولا الله ثمّ الحقول لما تزاوج الناس ولما استمرّت الحياة بالتناسل والتكاثر.

- لقد وجدت المشتري، قال أبي.

- مشترٍ لأيّ حقل؟

- للصغيرين.

- ومن المشتري؟

- زوج أختك، يعني «أختي - أمّي».

- إذاً سيظلاّن داخل العائلة؟

- بالتأكيد. لكنّهما لم يعودا حقليك اللّذين تحبّ.

- ليكنْ، فأنا سعيد أن أدفع مهر زواجك.

كان أبي يقول إنّ الحقول كلّها لي. قابل صهري خفية عنّي. ولم أعد للحقلين ثانية.

أصبح زواج أبي زواجاً لنا كلّنا، بما في ذلك أمّي، بل إنّه

أصبح الحديث الوحيد لأهل القرية، وكنّا نعرف أنّ زوجة أبي صغيرة بل إنّها في سن أختي، ومدلّلة، لأنها كانت وحيدة. وكان أبوها من البراءة والطيبة ما جعله الرجلَ المفضّل في القرية. يحبّه كل الأطفال. والنساء تدعونه «حبيب الله».

التزمت أمّي لأبي بأن تساهم في تعليم زوجته الجديدة كلّ تقاليد بيتنا وما اعتاد هو عليه بالاتفاق مع أمها، صديقتها الحميمة. وقد راهن أبي كثيراً على مساعدة أمي وأخواتي لهذه الزوجة وتأهيلها لتحمّل مسؤوليّات البيت والعائله الكبيرة.

في هذه الأثناء تمّت خطوبة أختي لكنه كان لزاماً عليها أن تنتظر مجيء زوجة أبي إلى البيت، وحدّدنا موعداً لزواج أختي يلي زواج أبي بأربعين يوماً.

تزوّج أبي. أخذت «عمّتي» الجديدة مكانها في البيت، وأصبحت جزءاً منّا. أمضت أمّها الأسبوع الأول بعد الزواج معنا، لطمأنة ابنتها وللإطمئنان عليها مثلما تفعل كلّ الأمّهات في ديارنا. وأبوها يأتي ضيفاً محبوباً كل يوم لأنّه هو الآخر كان صديقاً حميماً لأبي.

أمضت عمتي الأسبوع الأوّل من حياتها الزوجية بنجاح أسعدنا كلّنا. ما إن عادت أمها إلى بيتها القريب من بيتنا، حتى بدأت عمتي تزورها يوميّاً، وتقضي إلى جانب أمّها وقتا طويلاً، يضطرّ أبي أن يذهب للبحث عنها، لكنه بدا منزعجاً، ولاحظنا

بعض الضيق على محيّاه. جاءت أمّي لإنقاذ هذا الزواج حيث عادت إلى البيت بضعة أسابيع. رأت صديقتها الحميمة في هذه العودة خطورة على ابنتها، فألزمتها بالبقاء نهائياً في بيت زوجها، وقد ثمّن أبي عالياً هذا الموقف الحميم لأمّي، وكذا فعلت عمتي الجديدة مع أمّي إذ بدأت تعاملها كما لو كانت أمّها الحقيقيّة، ونمت بين الزوجتين علاقة جعلتنا نطمئن على أمّي مدى الحياة.

تفرّغنا جميعاً لزواج أختي. كنّا نودّه بهيّاً ونادراً بالرغم من أني كنت مجروحاً في داخلي وحزيناً، وكنت أغطّي وجهي بسعادة تعرف أختي أنها مصطنعة.

جاءت فتيات القرية ونساؤها يرقصن بهذه المناسبة قبل يوم من رحيل أختي إلى بيت زوجها. يومها غنّت أمّي وعزف أبي للمرة الأخيرة. بينما كنت أقدم القهوة والشاي للنساء الجميلات. لابساً حزامي ومسدّساً حلمت بأن أحمله منذ زمن طويل وقد أهداه لي أبي، ويومها امتدحته النساء.

وأثناء الرقص كانت قوس قزحي تراني، هي التي كانت تسمّيني «السماء» رأيتها تمسح بعض الدموع وهي ترقص. قلت لنفسي ربّما تبكي رحيل أختي التي ستغادر القرية نهائياً والتي ستصحبها أمّي في سكنها الجديد وتقيم معها ثلاثة أيام أو أكثر لتوطينها ومساعدتها على امتصاص الغربة وبداياتها الحارقة. ويوم الرحيل رأيت قوس قزحي تضع صُرّة من القماش في يد أمّي، اعتقدت أنها هديّة الزواج.

في الأيام الثلاثة التي استغرقها غياب أمي لم أنجح مطلقاً في أن أرى تلك التي تسكن في رأسي ومخيلتي، وتملأ رائحتها روحي في كل ركن في البيت.

ـ «قوس قزحك في سماء أخرى» أسمع أبي يقولها دون تفاصيل.

حملت لي أمّي تلك الصُرّة من القماش بعد عودتها، حملتُها كما لو كنت أحمل قوس قزحي، بفرح لم أعرف مثله من قبل. لا الشعر، لا المطر، ولا الحياة أبهى من تلك اللحظة. ومن العادة أن تقاسمني أمّي وأبي أفراحي وأحزاني، إلا أنهما كانا بعيدين جداً. ويتلافيان حتى النظر إليّ. ولم تعد أختي/ذاكرتي معي. وشعرت في داخلي بصراع لا نهاية له. دعتني أمّي إلى فتح الصُرّة بينما كان أبي قد خرج بدون أن يقول كلمة واحدة. كان يكفيني أن أشمّ رائحتها، أن أضمّها، وأن أربطها في حزامي مدى الحياة. بدون حاجة إلى معرفة ما تحتويه. لكنّ أمّي أصرّت، رأيت خصلة من شعرها وعطراً لا يفوح إلاّ من قوس قزحي.

ـ هذا ما أمكنها أن تعطيك. أما هي فقد خطبتْ، ولم يبق لك منها إلاّ ما في يديك. قالت أمّي.

أذكر الآن أن أمّي حاولت أن تحدثني، أن تواسيني وتعزّيني. دخلت معي في الفاجعة. لكني لم أكن أسمع شيئاً على الإطلاق. ولا أحسُّ بشيء. كنّا في البيت. حاولت النظر إلى

الوادي. كان كل شيء ميّتاً فارغاً. حتى النار في الموقد كانت باردة.

ولا أذكر إن كنت ذهبت لرؤية حزام أم أنّه هو الذي جاء إلى البيت. بدا وكأنه يعرف، لكنه كان يبتسم. أذكر أني صفعته، أخذني بين ذراعيه وهو يجفف دموعنا، آه يا حزام، آه يا قريتي. والشمس تقترب من المغيب وأبي ينادي للصلاة بصوت مليئ بالحزن والدموع. اختفت القرية، ولم يبق لي إلاّ حزام الذي اصطحبني نحو الصخرة الكبيرة التي كنّا ندعوها «الذاكرة» وهي الصخرة الوحيدة التي كانت تتوّجها نبتة نادرة يرويها حزام كل مساء. بالقرب من هذه الصخرة تدفن النساء عذاباتهن، وهكذا يفعل الشعراء.

ـ رأيت قوس قزحك هنا ليلة أمس وهي التي روت النبتة قبلي وقد جاء دورك الآن لترويها ولتدفن هذه الصرّة. ورأينا أبي وأمّي وأمّ قوس قزحي آتين من بعيد. وضع حزام يداً على رأسي، والأخرى على الصخرة. الصخرة الذاكرة. ولم أر الشمس تشرق بعد ذلك اليوم. تزوّجتْ «قوس قزحي». ولكنّي كنتُ قد تركت القرية حاملاً معي سرّي الذي لا أبوح به إلاّ لصورة أبي.

خاتمه

بعد أن فرغت من كتابة هذا النصّ باللغة الفرنسية. عدت إلى قريتي، تلك القصيدة التي كتبوها عبر آلاف السنين. كان عليّ أن أرى حزام الذي لا تعنيه رؤية أحد. حيّاني بابتسامته الأخيرة، واتّجه شامخاً نحو خزانته، أتى بقليل من التمر والزبيب ثم دعاني إلى الجلوس بين يديه. ألقى نظرة شوق على كتابي. ترجمت له بعض المقاطع، لاحظ أني كنت أقرأ من اليسار إلى اليمين، قال لي: كم أنا سعيد أن ترى العالَم من طرفيه.

لم يفاجأ حزام عندما أخبرته بأنّي وجدت ناشراً وأنّ هذا الأخير دفع لي مبلغاً من المال:

ـ لقد سمعت بهذه «الدراهم النظيفة»، وعرفت أنّك وزعتها على أخواتك، مع أني خشيت أن تكون قد بعت القرية.

ـ هل يبيع الإنسان روحه؟

تمنّى حزام لو أنّي نذرت هذا المبلغ لترميم ما أمكن من القرية. أجبته بأنّ أخواتي صُغن من هذه الهدية نشيداً لكل القرى.

أمسك بيدي وقال:

«لأنّي قد لا أراك ثانية فسوف أعترف لك بشيء لا تعرفه: لم أكن على اتفاق أبداً مع أمّك التي كانت تُصرّ على أنّ القرية أغنية. ولأنّك اعترفت لي بأن نساءً رافقنك واحتفين بهذه العمل منذ الكلمة الأولى إلى نهايته، فإنّي أنحني الآن إجلالاً لكل النساء اللواتي ساهمن ويساهمن في تخليد هذا النشيد وهذه القرية».

هكذا حدّثني حزام الذي كان واقفاً مثل سيف صارم أمام بيته وهو يقول لي وداعاً للمرّة الأخيرة.

عدتُ إلى باريس، وبينما كنت أعمل على تصحيح التجارب المطبعية (البروفات)، جاءت أخبار القرية لتُعْلمني بأن حزام في المستشفى. حزام الذي لم يكن يعترف إلاّ بمرض واحد هو الموت، وعلمت أنّ رجال القرية يتناوبون ليلاً ونهاراً على رعايته وحراسته.

اتّصلت به وكان من الصعب أن أتصوّر حزام عبر الهاتف. قال لي:

ـ أهلاً بالغائب. (هكذا كان يناديني منذ أن غادرت القرية. وحتّى عندما كنت أعود من حين إلى آخر).

ـ لماذا أنت في المستشفى؟

ـ لأنّي مريض رُبمّا، أو هكذا يحاولون إيهامي.

ـ سآتي لاصطحابك معي إلى هنا. وستجد عناية فائقة من نساءٍ أحببنك كما لو كنت أباهن جميعاً.

ـ باكستانيّات؟

ـ لا. نساء هنّ أقرب إليك وإلينا وإلى القرية. وأودّ إخبارك بأنّ كتابي سيصدر قريباً وهو يحمل اسمك. لكن هذا الإسم تحوّل إلى مؤنّث في اللغة الفرنسيّة، والحزام كما علّمتنا يا حزام يكشف عن كلّ شيء: شاعرية النساء وكبرياء الرجال وزهوهم، وأنت يا أبتي حزام لم تُخفِ عنّي شيئاً منذ أن عرفتك.

ـ لا تأتِ لاصطحابي ولكن أرسل لي كتابك فربّما يقرأه الأحفاد. أما أنا فقد أوصيت لك بحزامي وخنجري.

استلمت الوصية الثمينة وعلقتها إلى جانب صورة أبي.



نحن، على حدّ علمي، القبيلة الوحيدة التي تهبط من السماء! نعيش في منطقة جبلية، والسماء عندنا جزء من الجبال، في قريتي لا يسقط المطر كعادته، بل يصعد (...)

روت لي أمّي يوماً أنّ قريتنا كانت في البدء أغنية فريدة، تماماً كالشمس والقمر، وأنّ الكلمات التي يمنحها الناس طاقة شعريّة، تطير كالفراشات، بعضها، الأكثر غنى لونيّاً والأكثر جمالاً تطير بخفّة لا مثيل لها، ولأنّ قريتنا هي بالتأكيد الأقرب إلى السماء، فإنّ هذه الكلمات الشعرية تجد فيها أفضل مكان للتباهي بمكنوناتها، ولكي تضيء العالم.

كلّنا شعراء، كانت تقولها أمي دائماً: الأشجار، النباتات، الزهور الصخور، الماء... إذ يكفي أن تُصغي للأشياء لكي تسمعها تغنّي.

* أحمد أبو دهمان، يحمل في بطاقة هويّته أكثر من تاريخ ميلاد، لكنّه وُلد فعلاً في قرية آل خلف الواقعة على قمم جبال السروات، في جنوب المملكة العربية السعودية. وهو أوّل كاتب من الجزيرة العربية يكتب عملاً إبداعياً باللغة الفرنسية.

ISBN 1 85516 567 8

صورة الغلاف: Thierry Mauger

